أخلاقنا في الميزان

تأليف
الدكتورة فاطمة عمر نصيف

دار المحمدي

أخلاقنا في الميزان

ح دار المحمدي للنشر والتوزيع، ١٤٢١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

نصيف، فاطمة بنت عمر بن محمد.
أخلاقنا في الميزان - جدة.
١٢٠ ص، ١٧ × ٢٤ سم.
ردمك: ٦ - ٦٦ - ٧٥٢ - ٩٩٦٠
١ - الأخلاق الإسلامية أ - العنوان
ديوي ٢١٢ ٢١/٥٠٣١

رقم الإيداع: ٢١/٥٠٣١
ردمك: ٦ - ٦٦ - ٧٥٢ - ٩٩٦٠

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

الناشر
دار المحمدي للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية
جدة - حي الجامعة - شارع عبدالله السليمان
هاتف: ٦٨٩٧٥٠٩ - ناسوخ ٦٨٠٣٦٠٤
ص ب: ٩٣٤٧ - جدة ٢١٤١٣

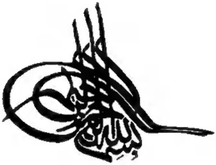

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، أكبر الخلق الكريم وأعظم أمره، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

والصلاة والسلام على من بعثه ربه ليكون الأسوة الحسنى للإنسانية، والقدوة العظمى لأهل الإيمان والإحسان، وليكون الترجمة الصادقة لأخلاق القرآن، قد حوّل الإيمان إلى عمل، والفكرة إلى حركة، والمبادىء إلى سلوك، فأدى رسالة ربه (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). فكان للأخلاق وبالأخلاق، مثلاً أعلى واستحق ثناء ربه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾!!

وبعد: فيتساءل كثيرون ممن يهمهم صلاح الأمة عن السبب في أن الفساد في هذه الأمة يتزايد، وأن الأخلاق الفاضلة تنهار، مع كثرة الوعظ والإرشاد، وكثرة الحديث عن الفضيلة، وازدياد نشاط الدعاة إلى الخير من أفراد وجماعات!!

لقد أردت أن أبحث عن أسباب انكماش الفضيلة، وانتشار الرذيلة في خير أمة قامت أصلاً على مكارم الأخلاق، حتى أصبح الناس يسمعون أقوالاً في الخير ولكن لا يرون الخيّرين، ويسمعون دروساً في الفضيلة ولكن لا يرون النفوس الفاضلة.

وهذا الذي دعاني للبحث عن «الأخلاق» على ضوء الكتاب والسنة، لأتعرف على حقيقة المنهج الأخلاقي في الإسلام الذي يختلف عن المناهج الوضعية لأنه من الله خالق الخلق، العليم الخبير بما فيه صلاحهم وفلاحهم (أفلا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)؟!.

ومن هنا، فقد عقدت العزم أن أعكف على دراسة النصوص القرآنية والأحاديث النبوية بالتأمل والتدبر، بعيداً عن الدراسات الأخلاقية للفلاسفة الإسلاميين ولغيرهم ممن سبقهم أو جاء بعدهم، رجاء أن أصل إلى تصورٍ حقيقيٍ صافٍ من النبع الأصيل (الكتاب والسنة) دون سواهما.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن أمهد له، بتعريف عام لمفهوم الأخلاق وتمييز الأخلاق عن غيرها من المسميات التي تداخلت معها. فكان لابد من هذا «التمهيد» وتحديد السلوك الأخلاقي والسلوكِ غير الأخلاقي حتى لا يختلط علينا ما ليس من قبيل الأخلاق بما هو منها.

وبعد أن انتهيت إلى تحديد الأخلاق تحديداً تطمئن له النفس، انتقلت إلى بيان مكانة الأخلاق في «الكتاب والسنة». فاستعرضت كتاب الله وسنة رسوله، واستنطقت هذا الكم الهائل من النصوص حيث شغلت الأخلاق حيزاً عظيماً من القرآن والسنة حتى أن سوراً بأكملها تكاد تكون حديثاً متصلاً عن الأخلاق، ولا تكاد تخلو سورة واحدة من الحديث عن الأخلاق والحث عليها والالتزام بها، حيث جاءت الأخلاق متصلة اتصالاً وثيقاً بكل ما جاء في القرآن من عقائد وعبادات ومعاملات؛ فهي جزء لا يتجزأ من العقيدة والعبادة وسائر جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

لقد دعا الإسلام إلى الإصلاح في كل أعمال الحياة، ما يعم منها وما يخص، وما يتصل بالحس، وما يتصل بالنفس، فدعا إلى إصلاح القول، لأن القلب إذا صلح صلح معه الحس. وإن النية الصادقة توجه إلى العمل الصالح، وإخلاص القلب يجعل العمل مستقيماً، ولا يصلح الناس إلا قلب تقيّ، وعمل جديّ.

وقد فرض الله العبادات لمصلحة المتعبد نفسه، فهي تربي الضمير الديني اللوام عند مقارفة معصية أو مقاربتها. فالصلاة لا تكون محمودة إلا إذا هذبت النفس وطهرتها، وجعلت صاحبها ربانياً لا يعمل إلا لله تعالى، وبين أن غايتها وخاصيتها أن تمنع الفساد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

وفي الصوم تربية للضمير، وائتلاف روحي، وتعاون اجتماعي. والزكاة فريضة ربانية، تطهر النفس والحس، من الشح والبخل وتتجه إلى إيجاد مجتمع فاضل متعاون أدبياً ومادياً. والحج عبادة اجتماعية ويكون بالمال والبدن، فهو عبادة تهذب الروح وتوحد بين المسلمين في مؤتمرهم السنوي الكبير، فهم حين يؤدون مناسكهم يشعرون بوحدة العبادة، والوحدة الروحية والإنسانية.

وهذه الإشارات الموجزة إلى صلة الأخلاق بالعبادات، تنتهي إلى نتيجتين:

الأولى: أن هذه العبادات تتجه إلى تربية الوجدان الديني الذي يجعل المؤمن مؤتلفاً مع غيره ليتكون من هذا الائتلاف مجتمع إيماني فاضل متآلف متواد متحاب متكافل متراحم.

الثانية: أن العبادات ليست غايتها مجرد التقوى السلبية، بل إنها تتجه إلى إيجاد مجتمع قوي متماسك غير متباغض ولا متنازع. وإنها إذا لم تؤد إلى هذه الغاية لا تكن عبادة محسوبة لصاحبها ولا تنتج خيراً له بل تكون وبالاً عليه.

ومن هنا يتضح الفرق بين المنهج الأخلاقي الإسلامي، والمنهج الأخلاقي الوضعي؛ فإن المنهج الإسلامي يقوم على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر، وما فيه من بعث وحساب وجزاء، وأهمية الخلق الكريم، من حيث هو كمال روحي للإنسان في الدنيا، وموجب لسعادته في الآخرة، فهو منهج روحي في حقيقته ومقاصده لأن قيامه على أساس الإيمان، يوجه الآخرين بآدابه ومبادئه إلى طلب الكمال النفسي والرقي الروحي، ويمنعهم من الاتجاه إلى طلب المنافع المادية والمآرب الشخصية، ويطبعهم على الإيمان والاقتناع بفضائل هذه

الأخلاق في ذاتها. . وهذا الإيمان يحملهم في أعمالهم ومعاملتهم وصلاتهم بغيرهم على رعاية الأمانة وتحري الصدق، والوفاء بالعهود والمواثيق، واحترام الحقوق والواجبات والإخلاص في القول والعمل، والترفع عن النفاق والرياء إلى غير ذلك من الفضائل الخلقية والآداب النفسية، التي تتمثل أصولها في طهارة القلب وسلامة الصدر، وعفة اللسان واستحياء النفس من فعل ما يوجب اللوم والتأنيب.

وخلاصة القول: إن الحياة في ضوء المنهاج الإسلامي: نظام خلقي يقوم على إشاعة الفضيلة بين أفراد المجتمع، ونظام سياسي أساسه إقامة العدل، وتنفيذ أحكام الشرع، ونظام اجتماعي نواته الأولى الأسرة الصالحة، وركيزته التكافل والتراحم، ونظام اقتصادي لحمته العمل وسداته الإنتاج وتحقيق العدالة الاجتماعية.

وهذا المنهج الرباني لا يمكن تجزئته والعمل بجانب دون الآخر منه، بل يجب العمل به متكاملاً حتى يؤدي ثمرته قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: الآية ٨٥].

فالمنهاج الذي أكمله الله وأتمه: عقيدة، وشريعة، ونظام أخلاقي، هذه الأمور الثلاثة هي ملاك الحياة الإنسانية، وبها بقاؤها ونماؤها وهي ركائزه وأركانه تؤلف وحدة مركبة تترافد عناصرها، ويغذي بعضها بعضاً، فتتولد منها حياة فاضلة ملؤها السعادة والطمأنينة والعزة والرفاه، فإذا وقع الخلل في أحدها اختل عملها كلها، وأصابها الشلل والانحلال.

ولقد خصصت فصلاً للحديث عن القيم الثابتة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي الفاضل، فمن الحقائق الثابتة أن رسالة الإسلام الأخلاقية تضمنت القيم الكفيلة بتأسيس مجتمع رباني فاضل، وحضارة إنسانية راقية، أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

فالأمة الإسلامية العالمية التي تم إخراجها بمقتضى المنهاج الرباني قامت على أساس العقيدة الصحيحة، التي أسقطت جميع الفوارق وأزالت جميع

الحواجز من لغة، أو جنس، أو لون، ورفعت ميزاناً واحداً وهو التقوى.

فكانت أول «أمة عالمية» تحقق هذا المفهوم في تاريخ البشرية، والتي أصَّل فكرتها، وأسس بنيانها رسول الإنسانية ﷺ، عالمية في عناصر تركيبها، وفي أصولها ومبادئها وقيمها، وهذه الأمة الإنسانية المفتوحة: التي لا تغلق نفسها على جماعة معينة، أو إقليم معين، لأن تشريعاتها وقيمها جاءت للإنسان من حيث هو إنسان أينما كان: في عواطفه، وانفعالاته، وسلوكه وتصرفاته.

فهي أمة، ومجتمع، ودولة الإنسانية الصالحة لكل زمان ومكان: في مبادئها، وقواعدها، ووسائلها، وغاياتها، دولة المثل والقيم والمبادىء الإنسانية الرفيعة التي تقدس الكرامة الإنسانية، وتضمن لجميع رعاياها (مسلمين وغير مسلمين) جميع الحقوق والحريات المنبثقة عن العقيدة التي هي جزء لا يتجزأ عنها، والتي من بينها: العدل الرباني المطلق بتحقيق العدل السياسي والاقتصادي والاجتماعي والمساواة، بجميع أنواعها التي تحدثت عنها الدساتير الوضعية الحديثة وعجزت عن تطبيقها وتحقيقها في عالم الواقع.

ومن تلك القيم الثابتة التي تقوم عليها دعائم المجتمع الإسلامي (الإخاء). وما يتفرع عنه، وما يحققه من ثمرات في واقع الناس وحياتهم. وكذلك هناك قيمة لا غنى عنها لبناء أي مجتمع سليم، تلك هي **الإنفاق والإيثار والبذل والتضحية** التي تضمن التكافل والتضامن الاجتماعي، إلى غير ذلك من القيم الثابتة، وما تفرع عنها من قيم ومبادىء عظيمة لابد منها لقيام المجتمع الفاضل، فكان المجتمع الإسلامي بذلك مجتمعاً إنسانياً راقياً، محققاً معنى المدينة الفاضلة التي تخيلها الفلاسفة المثاليون ولكنهم عجزوا عن إخراجها من القول إلى العمل.

ولكن المنهاج الرباني أخرج هذا المجتمع الفاضل، وحقق لأول مرة في تاريخ البشرية «المدينة العالمية الفاضلة» بشهادة الحق سبحانه قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: الآية ١١٠].. وهذه الخيرية مضمون حضاري إنساني يحقق، وليست لقباً يعطى وصفة تضفى.

ثم جاء دور الحديث عن «ضوابط هذا المنهاج وآثاره». ذلك أن الشريعة تعتبر الأخلاق الفاضلة أولى الدعائم التي يقوم عليها المجتمع، ولهذا وضعت من النظم والعقوبات الصارمة ما يكفل حمايتها وعدم المساس بها، وإن الأساس الذي قامت عليه العقوبات الشرعية هو حماية الفضيلة ومحاربة الرذيلة.

وقد استكمل المنهاج الإسلامي طرق الإلزام حين عددها، ونوعها، وشعبها وفصلها، وسلطها على عقل المؤمن، ثم على قلبه ونفسه، وغرائزه، وطباعه، وجسده؛ فانتزع الدواء من مكمن الداء واستثار القوة من مركز الضعف. وشمل بهذا الإلزام الكبائر والصغائر، وفصل أبواب الترهيب والترغيب في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وجعل الفرد رقيباً على نفسه، وعلى المجتمع، وجعل المجتمع رقيباً على الفرد، وأعد المسلم لمعركة الحق والخير في عقله ونفسه وصراع الحياة في جسده وروحه.

فتمت بهذا الاستكمال لطرق الإلزام كلمة ربك صدقاً وعدلاً وعلماً ورحمة وإحساناً في قوله سبحانه للمسلمين قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: الآية ٣] . . .

ثم ختمت بحثي بعرض الخطوات العملية لاكتساب مكارم الأخلاق لعلها تكون مشاعل على طريق المسلم للتخلق بأخلاق القرآن، وهي في جملتها غيض من فيض من بحر التوجيهات القرآنية والنبوية، وإن كان أهمها في نظري هو التربية الخلقية بالقدوة فقد اعتنى القرآن الكريم أيما عناية بالتربية عن طريق القدوة الحسنة، ذلك أن المبادىء السامية والقيم الرفيعة مهما كانت باهرة جذابة، لا يكون لها تأثيرها الفعال إلا إذا تحولت إلى حقيقة تتحرك، أو إلى بشر يترجم عنها بأفعاله، وتتجسم في تصرفاته وسلوكه، ومشاعره وأفكاره. ومن أجل ذلك جعل القرآن الكريم الرسول عليه الصلاة والسلام القدوة الدائمة المتجددة على مر العصور وكر الأعوام قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١] . فالأسوة الحسنة هي الداعي الصامت الذي يؤثر في النفوس في غيبته وحضرته، وفي

حياته وبعد موته، في حياته يهدي بقوله وخلقه وبعد موته بسيرته وذكراه وتاريخه.

كما اهتم المنهاج الرباني أبلغ اهتمام بتكوين رأي عام فاضل، فالتربية الخلقية لا تثمر، ولا تؤتي أكلها إلا في ظل رأي عام فاضل تختفي فيه الرذائل، وتعلو الفضائل، ذلك لأن التخلية من الرذائل مقدمة على التحلية بالفضائل.

هذه معالم بحثي الذي أقدمت فيه على دراسة علمية تؤصل الموضوعات بالأدلة بعد تحقيقها وسبر أغوارها ومناقشتها، وتعمد إلى النصوص فتسير على هداها دون تأويل أو تحميل لها أكثر مما تحتمل.

وبعد فلعلي أكون قد شاركت في مجال الدراسات الإسلامية ببحث متواضع ينفع الله به أبناء أمة القرآن ليتخلقوا بأخلاق القرآن.

وإذا ما وفق الله هذه الأمة إلى تقدير ما للأخلاق من أثر في تكوين أفرادها وجماعاتها، وأحلوها من أنفسهم المكان اللائق بها، فإن الله تعالى كفيل بأن يهيىء لها سبيل العزة والقوة.

والله ولي التوفيق.

د. فاطمة بنت عمر بن محمد نصيف

الفصل الأول

مفهوم الأخلاق

تعريف الأخلاق:

الأخلاق لغة: جمع خلق. والخُلق بسكون اللام وضمِّها السجّية. وفلان يتخلق بغير خلقه أي يتكلفه[1].

والخُلق حال للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خير أو شر من غير حاجة إلى فكر وروية. وفي التنزيل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: الآية ٤] . والخُلْق والخُلُق: السجّية وهو الدين والطبع. وفي حديث عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلقه ﷺ قالت[2]: كان خلقه القرآن، أي كان متمسكاً به وبآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف[3].

والخَلْقُ والخُلْق في الأصل واحد كالشَّرب والشُّرب والصَّرْم والصُّرم لكن خُص الخَلْقُ بالهيئات والأشكال المدركه بالبصر. وخص الخُلُق بالقوى والسجايا المدركه بالبصيرة. والخَلاق ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخُلُقه[4].

---

(١) الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر، مختار الصحاح، مادة خلق. دار الكتاب العربي، بيروت دمشق ١٩٦٧م.

(٢) الحاكم النيسابوري، المستدرك، جـ ٢، ص ٦١٣، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، (د. ت).

(٣) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة خلق، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٢م.

(٤) الراغب الأصفهاني، القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ص ١٥٨، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٠].

وقال مقداد يالجن[١]: (الخُلُق في الأساس هو الخلق بحسن التقدير والحكمة. ويشمل الخلق على هيئة جميلة. ومن هنا استعمل للسلوك على نهج مستقيم جميل).

ومما تقدم يظهر واضحاً أن الخلق في اللغة هو الطبع والسجية، وهذا يدل على أنه من الصفات الطبيعية للإنسان على هيئة صحيحة مستقيمة متناسقة.

معنى الخلق عند علماء الإسلام:

ومن السلف[٢] من يعد الدين هو الأخلاق الكريمة، لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القَلَم: الآية ٤] أي على دين عظيم.

والخلق قد يكون غريزة وقد يكون تخلقاً ولكن استعماله على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب وعلم ونية[٣].

وقد قسم ابن مسكويه[٤] الأخلاق إلى قسمين: [منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء، نحو غضب. ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب، وربما يكون مبدؤه الفكر ثم يستمر عليه أولاً فأول حتى يصير ملكة أو خلقاً].

يتضح من كل هذا تحديد معنى الأخلاق، حتى نميز بين الأخلاق وغيرها

---

(١) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، ص ٣٤، مكتبة الخانجي، ط ١ القاهرة، ١٩٧٣م.

(٢) القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن. م ٩، ص ٢٢٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٦م.
ابن كثير الحافظ عماد الدين ابن الفداء إسماعيل ت ٧٧٤هـ، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٤٠٢، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٩م.

(٣) ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، جـ ١، ص ٥٢، دار المعرفة، بيروت، (د. ت).

(٤) أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص ٥١، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨م.

من صفات النفس البشرية، وبين الأخلاق التي هي صفة مستقرة في النفس «فطرية» وبين الأخلاق المكتسبة. فالأولى «خُلُق»، والثانية «تخلق». والأولى تصدر عن السجايا والطبائع والغرائز الأصيلة الثابتة في قرارة النفس، ولكن ليس كل ما يصدر عن النفس يعد من الأخلاق الفطرية بل إن منها غرائز ودوافع نفسية لا صلة لها بالأخلاق على الإطلاق. فليست الغرائز التي تعارف عليها علماء النفس كالأكل والشرب والميل للجنس الآخر والخوف من قبيل الأخلاق؛ بل هي غرائز ودوافع مع أنها تصدر عن النفس استجابة لحاجة الجسم، أو غرائز النفس الفطرية، والذي يميزها عن الأخلاق هو آثارها في السلوك قابلة للمدح أو الذم، وبذلك يتميز الخلق عن الغريزة ذات المطالب المكافئة لحاجات الإنسان الفطرية، ونستطيع قياس مستوى الخلق النفسي عن طريق آثاره في سلوك الإنسان فالصفة الخُلُقيّة المستقرة في النفس إذا كانت حميدة كانت آثارها حميدة، وإن كانت ذميمة كانت آثارها ذميمة[١].

فالغرائز والدوافع النفسية لا تدخل في باب الأخلاق، وقد خلط كثير من الباحثين بين مظاهر السلوك الإنساني وبين السلوك الأخلاقي، وذلك لأنهم لا يملكون تحديداً واضحاً للأخلاق. وأخطأوا حين وضعوا السلوك الإنساني في باب الأخلاق، بسبب عدم قدرتهم على التميز الدقيق بين الأمرين.

ومن هنا اتضح لنا مدى أهمية التحديد الدقيق لمعنى الأخلاق، حتى نميز بين الخلق والتخلق، وبين الخلق المحمود والخلق المذموم، وبين الغرائز والدوافع النفسية، وبين الصفات الخلقية، وبين الحكمة التي تضبط السلوك وتوجهه وفق مقتضى العقل السليم والدين القويم، وبين الذكاء الذي يعني القدرة على التكيف والتلاؤم، فلا بد للباحث المدقق أن يميز بين هذه الأمور حتى لا يقع في أخطاء فادحة في موضوع الأخلاق.

---

(١) حبنكة عبد الرحمن الميداني، الأخلاق الإسلامية، جـ ١، ص ٧ وما بعدها دار القلم، دمشق ط ١، ١٩٧٩م.

وخلاصة القول من كل ما سبق أن للأخلاق ثلاث معان بارزة: ـ

الأول: الخلق يدل على الصفات الطبيعية في خلقة الإنسان الفطرية على هيئة مستقيمة متناسقه. وهذه هي الأخلاق الفطرية الطبيعية.

الثاني: تدل الأخلاق على الصفات التي اكتسبت، وأصبحت كأنها خلقت مع طبيعته وهذه هي الأخلاق المكتسبة.

الثالث:

إن للأخلاق جانبين: جانباً نفسياً باطنياً، وجانباً سلوكياً ظاهراً.

فكل خلق فطري أو مكتسب، له ظواهر في السلوك تدل عليه ولكنها دلالة ضمنية وليست قطعية، فقد يمارس الإنسان سلوكاً ليس من طبيعته، ولا من خلقه كما يفعل المنافقون، وقد يكون تخلقاً وتطويعاً للنفس وترويضاً لها على مكارم الأخلاق، فالعلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، والصبر بالتصبر.

فقد يجود الشحيح لغاية في نفسه، فيسمى العمل عطاء كريماً، ولكن يظل صاحب هذا العطاء الكريم غير متصف بخلق الجود، لأن خلقه الأصيل في نفسه هو خلق الشح ويظل كذلك حتى يتحول بالتدريب والعادة فيكون جواداً في نفسه، وحتى يكتسب خلق الجود فيحل محل خلق الشح[1].

مفهوم الأخلاق في التصور الإسلامي:

إن مفهوم الأخلاق في التصور الإسلامي، والذي يقوم على مصادر المعرفة الإسلامية ـ وهي القرآن والسنة والمصادر التشريعية الأخرى ـ يتضح منها اتساع دائرة الأخلاق وشمولها، ويبرز هذا الشمول في ميدان الأخلاق والفضائل، فالأخلاق الإسلامية ليست هي التي تعرف عند بعض الناس بالأخلاق الدينية التي تتمثل في أداء الشعائر التعبدية واجتناب أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ونحو ذلك لا غير. إنها أخلاق تسع الحياة بكل جوانبها وكافة

---

(١) المرجع السابق، جـ ١، ص ١٣.

مجالاتها، إن الأخلاق في الإسلام لم تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية روحية أو جسمية، دينية أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو اجتماعية، إلا ورسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع، فما فرقه الناس في مجال الأخلاق باسم الدين وباسم الفلسفة، وباسم العرف أو المجتمع قد ضمه القانون الأخلاقي في الإسلام في تناسق وتكامل وزاد عليه[1].

أ ـ **إن الإسلام وسط في الأخلاق** بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكاً أو شبه ملاك، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له، وبين غلاة الواقعيين الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان. فالإنسان في الإسلام مخلوق مركب فيه العقل وفيه الشهوة، قد هدي النجدين، فيه استعداد للفجور استعداده للتقوى ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتزكى. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: الآيات ٧-١٠] .

ب ـ **وهو وسط في نظرته إلى حقيقة الإنسان** بين النحل والمذاهب التي تقوم على اعتباره روحاً علوياً سجن في جسد أرضي، وبين المذاهب المادية التي تعتبر الإنسان جسداً محضاً، وكياناً مادياً صرفاً، أما الإنسان في الإسلام فهو كيان روحي ومادي، كما يشير إلى ذلك القرآن في قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ [الحجر: الآية ٢٩] .

جـ ـ **وهو وسط في النظرة إلى الحياة** بين الذين أنكروا الآخرة واعتبروا الحياة الدنيا هي كل شيء وقالوا: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩﴾ [الأنعام: الآية ٢٩] وبين الذين رفضوا هذه الحياة فحرموا على أنفسهم طيباتها وزينتها وفرضوا عليهم العزلة عن أهلها والانقطاع عن عمارتها والإنتاج لها. فالإسلام يعتبر الحياتين، ويجمع بين الحسنيين ويجعل الدنيا مزرعة

---

(١) القرضاوي يوسف، الخصائص العامة في الإسلام، دار المعرفة الدار البيضاء ١٩٧٧م ص ١١٧.

للآخرة، ويرى العمل في عمارتها عبادة لله واداء لرسالة الإنسان، وينكر على الذين يحرمون الزينة والطيبات. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ [الأعراف: الآية ٣٢] كما ينكر على الآخرين إنهماكهم في الترف والشهوات، يقول الله في كتابه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمّد: الآية ١٢] بل يعتبر القرآن أن السعادة والحياة الطيبة في الدنيا من مثوبة الله لعباده المؤمنين[(١)]. فيقول: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٨] .

الغاية من الالتزام بالأخلاق:

إن من أعظم أهداف الرسالة المحمدية بناء الفرد الصالح، والمجتمع الفاضل وفق المنهج الرباني. بالتحلية بالفضائل والتخلية من الرذائل لإيجاد الإنسان الخليفة والأمة الربانية المتآلفة المتآخية المتوادة التي يعمل فيها الفرد لمصلحة الجماعة، والجماعة لمصلحة الفرد، في توازن وتناسق وتكامل يؤدي إلى إيجاد المجتمع الفاضل والأمة الفاضلة والإنسانية السعيدة التي طالما راودت أحلام الفلاسفة والمصلحين والمفكرين عبر السنين، وظلت في عالم الخيال، ولم تتحقق في عالم الواقع إلا في ظل التربية القرآنية والقيادة النبوية. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠] . إنها الأمة العالمية التي صنعها الله على عينه لتكون المثل الأعلى للإنسانية، إنها الأمة المسلمة التي اصطفاها الله من بين سائر الأمم لتحمل رسالة الإسلام العالمية وتكون الشاهدة والهادية والقائدة للبشرية. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٢] .

فالأمة المسلمة ليست تكتلاً أو حشداً أو كياناً عدائياً، تقيم علاقاتها بالآخرين على أساس الهيمنة والقهر العقائدي، بل هي في المفهوم الإسلامي

(١) القرضاوي، الخصائص العامة في الإسلام، ص ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠.

مشروع راق للحضارة الإنسانية التي تجسم معنى الاستخلاف في الأرض، وهذا هو معنى «الخيرية» التي هي مضمون حضاري يحقق، وليست لقباً يعطى، أو صفة تضفى.

لقد أرسل الله تعالى رسوله ﷺ هادياً، ومعلماً ومربياً للبشرية كلها استجابة لدعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: الآية ١٢٩].

فجاءت الرسالة المحمدية تربية وتعليماً وتهذيباً، وتزكية للإنسانية، كما حددتها هذه الآية الكريمة بكل دقة وصراحة ووضوح. لقد حددت الآية هدف البعثة النبوية بأمرين:

أ ـ التربية والتعليم ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: الآية ١٢٩] والكتاب هو القرآن. والحكمة هي السنة والسيرة. تربية تقوم على العقيدة والمبادىء والقيم والمُثل العليا، التي هي حلم الإنسانية التي طال شوقها، وانتظارها إليه. تربية شاملة متناسقة متوازنة تحقق للفرد حريته وكرامته وإنسانيته. فلا تطغى الماديات على الروحانيات، ولا تطغى الجماعة على الفرد ولا ينفلت الفرد بأنانيته القاتلة التي تشل حركة الجماعة وتسخرها لإشباع رغباته وشهواته.. بل الكل يعمل في اتجاه واحد لتحقيق هدف واحد هو صياغة الفرد الصالح والمجتمع الفاضل المتآخي المتكافل والمتراحم. إنه المنهج الرباني الذي وضعه خالق البشر لإصلاح البشر، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: الآية ١٤].

ب ـ التربية والتزكية.. ولقد لخص الرسول المعلم ﷺ رسالته وحددها تحديداً دقيقاً واضحاً: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[1].

---

(١) البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد ط ٣، ١٩٨٩م، ص ١٠٤ دار البشائر الإسلامية بيروت.

فقوله: إنما أداة قصر وحصر، وكأن رسالته محصورة ومقصورة على التهذيب والتزكية ليكون الأسوة الحسنى والقدوة العظمى، والتطبيق العملي للمنهج الرباني (القرآن). فتأمل دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام كيف ربطت بين العقيدة والأخلاق. فجعلت الأخلاق جزءاً لا يتجزأ من العقيدة.

فالأمة الإسلامية أمرت أن تقتدي برسول البشرية كي تتعلم الخير ليُفعل والشر ليُتقى، فيتم لها التعليم والتربية والتزكية.

فيلخص الرسول ﷺ رسالته في هذا الهدف النبيل ويبين أن إحدى مهماته هي إرساء قواعد مكارم الأخلاق وإتمام صالحها وبيان معاليها، لأن لها دوراً عظيماً وأثراً بارزاً في إيجاد الأمة الإسلامية القوية (خير أمة)، والمجتمع الإنساني المثالي.

الفصل الثاني

عناية القرآن والسنة بالأخلاق

إن رسالة الإسلام من الكمال والجمال والعظمة والشَّمول والسمو بحيث شملت كل حقائق الوجود، وتضمنت كل الكمالات الإنسانية في كل جوانب الحياة، بل وفي كل شعيرة من شعائر هذا الدين العظيم فأصبحت بعظمتها خاتمة الرسالات السماوية واستحقت بجدارة هذا الشرف، ومع هذه العظمة يظهر واضحاً أن الأخلاق الفاضلة، والكمالات الإنسانية قد احتلت مكاناً مرموقاً ومنزلة عالية رفيعة في هذا الدين، يؤكد ذلك التوجيهات القرآنية والنبوية الكثيرة والتي شغلت حيزاً كبيراً من الكتاب والسنة والسيرة العطرة، حتى صارت الأخلاق عنواناً لرسالة الإسلام كلها، وصفة صاحب الرسالة العظمى محمد ﷺ. فقد اجتمعت لرسول هذه الأمة مكارم الأخلاق، فأثنى عليه ربه في كتابه الكريم بهذا الثناء الفريد، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: الآية ٤] . أي على دين عظيم. وقال عطية: (هو أدب القرآن). وحقيقة الخلق في اللغة هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب، يسمى خلقاً لأنه يصير كالخلقة فيه. فلم يذكر خلق محمود إلا وكان للنبي ﷺ منه الحظ الأوفر، وقيل، سمى خلقاً عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه)[1]. فصار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له ﷺ وخلقاً تطبّعه، وترك طبعه الجبلي فيه فما أمره القرآن فعله، وما نهاه عنه تركه[2].

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م ٩، ص ٢٢٧.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٤٠٢.

وقد ورد في الحديث عن سعد بن هشام قال: (سألت عائشة رضي الله عنها عن خلق الرسول ﷺ فقالت: أتقرأ القرآن، فقلت: نعم فقالت: كان خلقه القرآن)(١). فكان كل أمر في القرآن، وكل نهي، مترجم ترجمه واقعية في حياته ﷺ.

وقد أوضح سيد قطب(٢)، رحمه الله مدلول الخلق العظيم قائلاً: (هو ما هو عند الله، مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين، إنها ليست فضائل مفردة إنما هي منهج متكامل تتعاون فيه التربية التهذيبية مع الشرائع التنظيمية، وقد تمثلت هذه الأخلاقية الإسلامية بكمالها وجمالها وتوازنها واستقامتها واطرادها، وثبوتها في محمد ﷺ).

وقد عبر عن ذلك خادمه أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً)(٣).

لقد بلغ عليه الصلاة والسلام القمة في الكمال الإنساني وهو الذي ارتقى بسلوكه وأخلاقه إلى هذا الأفق العالي من العظمة، فاستحق هذه الصفة والتي لها دلالتها في تمجيد العنصر الأخلاقي في ميزان الله وأصالة هذا العنصر في الحقيقة الإسلامية.

تزخر كتب السيرة والحديث والتفسير بأخلاقه ﷺ مما لا يتسع المجال لذكره، فلم يذكر خلق محمود إلا وكان للنبي ﷺ منه الحظ الأوفر، وسوف أتناول بعضاً من تلك الصور المشرقة.

لقد وصفه الله عز وجل بوصف آخر. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا

---

(١) الحاكم النيسابوري أبو عبد الله محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين في الحديث ت ٤٠٥هـ، جـ ٢، ص ٦١٣ دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) الظلال، م ٦، ص ٣٦٥٦، دار الشروق، بيروت، الطبعة الحادية عشرة، ١٩٨٥م.

(٣) الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٧٩هـ: الجامع الصحيح، وهو سنن الترمذي دار إحياء التراث العربي، بيروت.

﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧] . قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان محمد ﷺ رحمة لجميع الناس.. فمن آمن به وصدق به سعد)[١]. فهو الرحمة المهداة للبشرية، وتشهد السيرة بتلك الرحمة التي شملت الأصدقاء والأعداء والصغير والكبير والإنسان وحتى الحيوان.

فالرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية، فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائعة أو كارهة، شاعرة أو غير شاعرة، وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة لمن يريد أن يستظل بها في هجير الأرض المحرق، وبخاصة في هذه الأيام. وإن البشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة ونداها. وهي تعيش قلقة حائرة، شاردة في متاهات المادية، وجحيم الحروب، وجفاف الأرواح والقلوب[٢].

فالرحمة ذلك الخلق الرفيع من مستلزمات النبوة، فالدعوة إلى الله تحتاج إلى لين ورفق ورحمة ورأفة. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٩] . أي لو كنت سيىء الكلام، قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك. وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم[٣]. كما قال عبد الله بن عمرو: إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: أنه ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح[٤]. فهذه الصفة اللازمة له عليه الصلاة والسلام كانت مهمة وضرورية لأن الناس (في حاجة إلى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائماً الاهتمام

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ ٦، ص ٣٥٠.
(٢) قطب، سيد، الظلال، جـ ٤، ص ٢٤٠٢.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ١، ص ٤٢٠.
(٤) الحاكم، المستدرك، جـ ٢، ص ٦١٤.

والرعاية والعطف والسماحة والود والرضا. وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ)[1].

وهذه الصفة، صفة الرحمة واللين والرأفة تكررت في القرآن في أكثر من موضع فقال تعالى يصف رحمة الرسول بالمؤمنين: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: الآية ١٢٨] أي يشق عليه عنتكم ومشقتكم حريص عليكم لا يلقي بكم في المهالك، فإذا هو كلفكم الجهاد وركوب الصعاب، فما ذلك من هوان بكم ولا بقسوة في قلبه وغلظة إنما هي الرحمة في صورة من صورها. الرحمة بكم من الذل والهوان، والرحمة بكم من الذنب والخطيئة. والحرص عليكم أن يكون لكم شرف الجنة التي وعد بها المتقون[2].

ولقد استدلت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بما كان عليه من مكارم الأخلاق على صدق رسالته، عندما جاءها رسول الله ﷺ بعد نزول الوحي (أول مرة) يخبرها الخبر وهو خائف يقول لها: لقد خشيت على نفسي. فقالت: (كلا لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر)[3]. ومعنى كلام خديجة: أنك لن يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق. وذكرت بعضاً منها ـ كالكرم والشجاعة والنجدة والحلم والصدق والأمانة ـ وفي هذا دلالة على أن خصال الخير ومكارم الأخلاق سبب السلامة من مصارع السوء[4].

كان من حرصه ﷺ على مكارم الأخلاق دعاؤه وطلبه وابتهاله لربه، قائلاً: (وجهتُ وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له

---

(١) قطب سيد، في ظلال القرآن، جـ ١، ص ٥٠٠ ـ ٥٠١.

(٢) قطب، سيد، المرجع السابق، م ٣، ص ١٧٤٣.

(٣) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتب العلمية ط ١، عام ١٩٣٠م، جـ ٢، ص ١٩٧.

(٤) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٠٢.

وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت)[١].

وكان يستعيذ بالله من منكرات الأخلاق فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء»[٢].

وهكذا، كان ﷺ مبعوثاً ليتمم مكارم الأخلاق، ومعلماً لمكارم الأخلاق، فكان القدوة الحسنى، والأسوة العظمى، اجتمع فيه ما تفرق في غيره من مكارم الأخلاق، فكان مجمع العظمات الأخلاقية ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: الآية ٤] . . فكل أقواله وأعماله وتوجيهاته وإرشاداته وسيرته للأخلاق وبالأخلاق.

إن اهتمام القرآن الكريم بالجانب الأخلاقي يبدو واضحاً حتى يكاد الباحث يحس بطغيان هذا الجانب على غيره، فقد اهتم القرآن الكريم به اهتماماً عظيماً، حيث قدمه على الجانب التعبدي في أكثر من موضع دلالة على أهميته، فعندما وصف سبحانه وتعالى عباده الخُلص عباد الرحمٰن بدأ بصفات خلقية يمتدحهم بها، وهي التواضع والحلم والقول الحسن، ثم عقب على هذه الصفات بصفة تعبدية عظيمة وهي صلاة الليل. قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤﴾ [الفرقان: الآيتان ٦٣، ٦٤] .

هؤلاء العباد الذين اصطفاهم الله ورضي عنهم وشرفهم بنسبتهم إليه، ووعدهم بالدرجات العلى في الجنة، بدأ بحليهم ويصفهم وصفاً أخلاقياً سلوكياً مزكياً أدبهم الجم وهذا يدل على مكانة الأخلاق ومنزلتها العالية عند الله.

يقول ابن كثير[٣]: (هذه صفات عباد الله المؤمنين الذين يمشون على

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، جـ ٥، ص ٤٨٤.
(٢) الحاكم، المستدرك، جـ ١، ص ٥٣٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، جـ ٣، ص ٣٢٤.

الأرض هونا.. اي بسكينة ووقار، كقوله تعالى: ﴿ولا تمش في الارض مرحا﴾ [الإسراء: الآية ٣٧] ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٣]، أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيىء لم يقابلوهم بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً. وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ [القصص: الآية ٥٥].

كما يقول سيد قطب(١) رحمه الله: (ها هي ذي السمة الأولى من سمات عباد الرحمٰن إنهم يمشون على الأرض مشية سهلة هينة ليس فيها تكلف ولا تصنع، وليس فيها خيلاء ولا تنفج، ولا تصعير خد، ولا تخلع أو ترهل.. فالمشية ككل حركة تعبر عن الشخصية وعما يستكن فيها من مشاعر والنفس السوية المطمئنة الجادة القاصدة تخلع صفاتها هذه على مشية صاحبها.

وهم في جدهم ووقارهم وقصدهم إلى ما يشغل نفوسهم من اهتمامات كبيرة لا يتلفتون إلى حماقة الحمقى وسفه السفهاء، ولا يشغلون بالهم ووقتهم وجهدهم بالاشتباك مع السفهاء والحمقى في جدل أو عراك ويترفعون عن المهاترة مع المهاترين الطائشين ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾، لا عن ضعف ولكن عن ترفع، ولا عن عجز، وإنما عن استعلاء وعن صيانة للوقت والجهد، أن ينفقا فيما لا يليق بالرجل الكريم المشغول عن المهاترة بما هو أهم وأكرم وأرفع).

وكذلك عندما وصف الله عز وجل الجماعة المختارة أعطاها صفات خلقية رائعة لا تخرج عن نطاق دائرة مكارم الأخلاق، فلو تأملناها لوجدنا أنها تبدأ بفضيلة الصبر والتوكل ثم طهارة القلب ونظافة السلوك، ثم خلق السماحة والعفو والصفح.. تأتي بعدها صفة المداومة على الصلاة لحماية تلك الأخلاق. كذلك كان من صفاتهم أن الأمور تتم بالمشاورة فيما بينهم، فلا تحكم بالرأي، ثم بصفة الإنفاق «السخاء والكرم»، ثم صفة العدل ثم صفة

(١) في ظلال القرآن، م ٥، ص ٢٥٧٧ ـ ٢٥٧٨.

الاعتدال والتوازن.. وهذا يدل على قيمة الفضائل الخلقية والأخلاق الحسنه الجميلة في دين الله..

قال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: الآيات ٣٦-٤٣].

يقول تعالى محقراً شأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم، فمهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به فإنه متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنيئة فانية، زائلة لا محالة، وثواب الله خير من الدنيا وهو باق سرمدي، فلا تقدموا الفاني على الباقي، ولهذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الشورى: الآية ٣٦] أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: الآية ٣٦] أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات[١].

فالإيمان الذي وصفوا به كان هو منبع الفضائل الخلقية التي اتصفوا بها. يقول سيد قطب[٢]: (وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملي على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس ومحاسبتها والإنصاف منها، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية حتى إذا جمحت السورة البهيمة في حين من الأحيان، وسقط الإنسان سقطة، وكان ذلك حين لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ٤، ص ١١٧ ـ ١١٨.
(٢) في ظلال القرآن، جـ ٥ ص ٣١٦٣ وما بعدها.

تحول هذا الإيمان، نفساً لوامة عنيفة ووخزا لاذعا في الضمير وخيالا مروعا لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة، ويتحملها مطمئناً مرتاحاً تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرة. وكان هذا الإيمان، حارساً لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته يملك نفسه النزع أمام المطامع والشهوات الجارفة. وكانوا قبل هذا الإيمان في فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك).

ومن مقتضيات هذا الإيمان الذي تشير إليه الآية وهي تصف الجماعة المؤمنة (التوكل على الله) وهذا الشعور ضروري لكل أحد كي يقف رافع الرأس لا يحني رأسه إلا لله مطمئن القلب لا يخشى أحداً إلا الله، ثابت الجأش في الضراء، قرير النفس في السراء.

ومن آثار الإيمان الصحيح طهارة القلب ونظافة السلوك من كبائر الإثم ومن الفواحش والسماحة والمغفرة تجعل صفة المؤمنين أنهم إذا ما غضبوا يغفرون، وتتجلى سماحة الإسلام مرة أخرى مع النفس البشرية، فهو لا يكلف الإنسان فوق طاقته والله يعلم أن الغضب انفعال بشري ينبع من فطرته، فيقوده إلى أن يغلب غضبه، وأن يغفر ويعفو، فيحببهم في هذه الصفة بالمغفرة عند الغضب والعفو عند القدرة والاستعلاء على شعور الانتقام.

وللصلاة في هذا الدين مكانة عظمى ـ فهي الضابط للسلوك والأخلاق ـ فقال تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٧] وهي مظهر المساواة بين العباد في الصف الواحد ركعاً سجداً، وأتبع إقامة الصلاة بصفة الشورى ليجعل أمرهم كله شورى وليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة. وصفة الإنفاق لتطهير القلب من الشح والبخل ـ واستعلاء على حب الملك. ثم صفة الانتصار من البغي، وعدم الخضوع للظلم فهي تنتصر من البغي وتدفع العدوان وتهيمن على الحياة البشرية بالحق والعدل، ثم صفة التوازن والاعتدال وضبط النفس والصبر والسماحة ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: الآية ٤٣] . فالصبر والسماحة استعلاء لا استخذاء وتجملاً لا ذلاً.

لقد أكدت السنة النبوية على أهمية الأخلاق ومكانتها في الشريعة الإسلامية بأحاديث كثيرة وردت عنه ﷺ، منها أنه جعلها من دلائل كمال الإيمان، فقد جاء عنه ﷺ أنه قال: «من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله»[1]. فالمؤمن لا يكتمل إيمانه إلا إذا اكتملت أخلاقه وحسنت سيرته، وبذلك يستحق صفة الخيرية فيصبح من خيار المؤمنين. قال رسول ﷺ: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً»[2]. ولعل أهم الأحاديث التي وردت في حسن الخلق هو قول النبي ﷺ: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون»[3].

هذه الأحاديث تدل على أن مكارم الأخلاق هي الجالبة لمحبة الله ولمحبة الرسول ﷺ وهي الموجبة للقرب منه يوم القيامة، وهل هناك مكانة ومرتبة أعلى من أن يكون المرء مع رسول الله ﷺ، في أعلى عليين. وهذا الذي يكشف لنا سر تمسك الصحابة رضوان الله عليهم بالشيم الكريمة رغبة منهم في الحصول على هذه المرتبة الرفيعة العالية يوم القيامة، فكانوا بذلك نجوم الهدى وأئمة تقتدى رضوان الله عليهم أجمعين.

إن الحوافز الكثيرة التي وضعها الرسول ﷺ للملتزمين بآداب الإسلام، المنضبطين سلوكياً، وأخلاقياً، كلها تؤكد أن الأخلاق من أفضل الطاعات والقربات. فحسن الخلق سبب في رفع درجات العبد المؤمن يوم القيامة، قال عليه الصلاة والسلام: «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة قائم الليل صائم النهار»[4].

وبمكارم الأخلاق يضمن المؤمن بيتاً في أعلى الجنة. قال عليه الصلاة

---

(١) الحاكم، المستدرك، جـ ١، ص ٥٣.
(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، جـ ١٠، ص ٤٥٦.
(٣) الترمذي، الجامع الصحيح جـ ٢ ص ١٩٦.
(٤) الحاكم، المستدرك، جـ ١، ص ٦٠.

والسلام: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ولو كان محقاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**»[1]. فيضمن صاحب الخلق العظيم ﷺ لصاحب الخلق الحميد بيتاً في أعلى الجنة. بل يجعل الرسول ﷺ حسن الخلق جماع الخير، فقد جاء في الحديث عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: (سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: **البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**). فالبر يكون بمعنى الصلة وبمعنى اللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة، وبمعنى الطاعة.. وهذه الأمور هي مجامع حسن الخلق[2].

ولأهمية حسن الخلق جاء الأمر صريحاً منه ﷺ بالتزامه فعن مالك أن معاذ بن جبل قال: آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ حين وضعت رجلي في الغرز أن قال: «**أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل**»[3].

إن توجيهات الرسول ﷺ أخذت مدى أبعد من ذلك، فاشترط في الزوج الصالح الخلق الحسن، فقال: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، قالوا: يا رسول الله وإن كان فيه، قال: إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ثلاث. مرات**»[4].

فالدين المقصود به الصلاح والتقوى والأخلاق الحميدة لدى مريد الزواج هو الذي يضمن دوام العشرة، ويحقق المودة والألفة، وهو السياج الذي يحمي الأسرة من عوامل التفكك والانحراف.

---

(١) أبو داود، سليمان بن الأشعث الأزدي: سنن أبي داود، جـ ٤، ص ٢٥٣ مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض.

(٢) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١٦، ص ١١١.

(٣) مالك بن أنس: الموطأ، م ٢، ص ٩٠٣ دار إحياء التراث العربي ١٩٥١م.

(٤) الألباني، محمد ناصر الدين، إرواء الغليل، جـ ١، ص ٢٦٦، المكتب الإسلامي، بيروت ط ٢، ١٩٨٥م.

كما ورد العديد من التوجيهات الربانية في تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع على أسس خلقية عظيمة كالتكافل والتراحم والتناصح والأمانة والعدل والمحبة والإخلاص والصدق. وهي صورة لمجتمع فريد في قيمه، فلو أننا تصفحنا القرآن لرأينا سوراً بأكملها كسورة الحجرات قد عنيت بهذا الأمر، واهتمت به، ومنها (سورة النساء) فمحور السورة يدور حول تنظيم المجتمع المسلم على تلك الأسس والارتفاع بها إلى مستوى يتميز بها عن سائر الأمم بأخلاقه وعاداته، ونظمه المستمدة من القرآن الكريم، فجاءت الآيات تنظم العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم وتمحو ملامح المجتمع الجاهلي، وتحمي الفئات الضعيفة فيه، فجاءت بالتشريعات العملية لحماية اليتامى والنساء وتنظيم الأسرة على غير غرار سابق، فلم تدع السورة الكريمة شأناً من الشئون فيه إصلاح المجتمع إلا وجهت إليه قد لا نكون مخطئين إذا قلنا أن سورة النساء جاءت بأعظم تنظيم للحياة الاجتماعية غير مسبوق ولا ملحوق فقد شاركتها في ذلك العديد من السور مثل سورة النور التي دارت آياتها كلها تقريباً حول إصلاح النفس الإنسانية وتهذيبها وتقويم الأخلاق وتصحيحها ووقاية المجتمع من الثغرات الخلقية ومواضع الخلل بوصف الداء والدواء. وقد أعطى الله تعالى هذه التوجيهات والإرشادات صفة الإلزام، فبدأت السورة بقوله تبارك وتعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ [النور: الآية ١]. . وفي الآية تقرير أن كل ما جاء في هذه السورة من حدود وتكاليف وأخلاق وآداب هي بمثابة فرائض شرعية، وهذا يدل على اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة حيث جعله فريضة كباقي العبادات.. ومن هذه الآداب أدب الاستئذان داخل البيوت وخارجها وأدب نقل الأخبار وآداب الضيافة وآداب معاملة الرقيق... إلخ.

والمحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود، وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرقيقة التي تصل القلب بنور الله والهدف واحد في الشدة واللين وفي تربية الضمائر واستجاشة المشاعر ورفع المقاييس الأخلاقية حتى تشف وترق وتتصل بنور الله

وتتداخل الاداب النفسية الفردية واداب البيت والأسرة واداب الجماعة[١].

فالمتأمل لكتاب الله يرى أن مكارم الأخلاق قد شغلت مساحة كبيرة منه حتى لا تكاد تخلو منها سورة بل إننا نرى آيات الأخلاق بين آيات العقيدة ونراها مع آيات العبادة ومعهما مجتمعات، ومع المعاملات في كل معاملة.

ومن الملاحظ أيضاً أن أغلب هذه الآداب والمكارم جاءت على شكل أوامر ونواهي (تكاليف شرعية) مثلها مثل باقي العبادات والطاعات.. ولكن من العجب أنه لا نرى صورة الآداب القرآنية والمكارم الخلقية في المجتمعات الإسلامية كما نرى مظاهر العبادات (ولا أقول جوهرها)، كالاهتمام الظاهري بالصلاة والزكاة والصوم والحج، هذا يدل على ضعف الوازع الديني واهتزاز العقيدة في النفوس فهي الدافع والضابط لسلوك الأفراد والجماعات..

فكل ما يصدر عن الإنسان من سلوك وتصرفات إنما هو ثمرة طبيعية لحقيقة إيمانية، فمن المظاهر المؤلمة حقاً التي هي نتيجة حتمية لاهتزاز حقيقة الإيمان أن نرى الرجل يصوم ويصلي وفي الوقت نفسه لا يبالي بتجارة يحتكرها أو جيران يؤذيهم أو عمال يمنعهم حقوقهم، بل نرى من يبالغ في الورع والتقوى فلا يكتفي بالفرائض بل يؤدي حتى النوافل، ومع هذا يعق أمه ويظلم زوجته ويماطل في دين مستحق. ولقد نعى القرآن الكريم أمثال هؤلاء بأساليب متنوعة تعرض في كل مرة لما ينبغي أن يكون عليه المسلم، ووجوب أن يعيش في حقيقة الإيمان لا في صورته. وشتان بين الأصل والصورة والمظهر والجوهر. ولكي يصحح كل مسلم مظهره وصورته فلا بد أن يطهر قلبه وينقي سريرته، فإذا صلحت صلح القلب، وصلحت الأعمال كلها.. قال عليه الصلاة والسلام: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله»[٢].

---

(١) قطب، سيد، في ظلال القرآن، م ٤، ص ٢٤٨٦.

(٢) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، م ١٦، ص ١١١.

صلة الأخلاق بالعقيدة والعبادات والمعاملات:

إن صلة الأخلاق بالعقيدة والعبادات والمعاملات صلة قوية متينة. فالأخلاق هي السمة البارزة الأصلية في كل جانب من جوانب هذا الدين، ففي الجانب العقائدي، أو الجانب التعبدي أو المعاملات، وفي العلاقات الأسرية والاجتماعية وهي ما تسمى بالأحوال الشخصية، وفي الجهاد ومحاربة الأعداء والعلاقات الدولية، وأحكام الرقيق وفي القضاء.. وحتى إقامة الحدود والجنايات نجد الأخلاق هي الأصل الأصيل.

(وإن الناظر في هذه العقيدة كالناظر في سيرة رسولها ﷺ يجد العنصر الأخلاقي بارزاً فيها، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء من الدعوة الكبرى في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة، والأمانة والصدق، والعدل والرحمة والبر، وحفظ العهد، ومطابقة القول للفعل، ومطابقتهما معاً للنية والضمير، والنهي عن الجور والظلم والخداع والغش وأكل أموال الناس بالباطل والاعتداء على الحرمات والأعراض وإشاعة الفاحشة بأية صورة من الصور والتشريعات في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي في الشعور والسلوك في أعماق الضمير وفي واقع المجتمع وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء)[١].

وبنظرة سريعة لهذه الجوانب يتضح ذلك تماماً:

أولاً، العقيدة

إن التشريعات والتوجيهات والأوامر والنواهي في دين الله تنبثق من أصل واحد وهو العقيدة الصحيحة التي هي أصل الأصول، ونبع الفضائل والخيرات، والأخلاق جزء لا يتجزأ منها، فمن الحقائق الثابتة أن الإسلام عقيدة وعبادة ونظام حياة، فهو عقيدة تنبثق منها شريعة، إنه الدين الذي يتمثل في العقيدة أولاً

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، م ٦، ص ٣٦٥٧.

وفي تشريعات الأحكام السلوكية ثانيا. ولقد جاء الإسلام مع العقيدة بنظام خلقي رفيع ونظام مادي لحكم المجتمع وتنظيم العلاقات بين أفراده.

فإذا تأملنا نصوص القرآن نجد أن الله عز وجل قرن عبادته وحده لا شريك له بفضيلة خلقية راقية وهي الإحسان، دلالة على أهمية الأخلاق في شرع الله، فنجد أن الله عز وجل في الوقت الذي يأمرهم بتوحيده بالعبادة، يأمرهم بالإحسان في كل شيء إلى كل أفراد المجتمع بأصنافهم وعلى رأسهم الوالدين.

والإحسان هو قمة العطاء والفضل والإيثار.. قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: الآية ٣٦].

وكلمة الإحسان من الكلمات الجامعة المانعة (ففي اللغة العربية كلمات كثيرة كساها الإسلام معان سامية ثم خلع عليها القرآن الكريم من ثياب البلاغة فأصبحت ذوات جلال موجز وبيان معجز. من ذلك الحياء والإنفاق والبر والإحسان الذي أكثر الكتاب الحكيم ذكره.. وعدّد الذكر البليغ أثره فقد وردت اللفظة ماضية ومضارعة وأمراً ومصدراً ثلاثة وثلاثين مرة ثم كلمة المحسنات مرة واحدة، ليمضي على نورها مستقيماً في معراج الخير والبر والإسلام، والإحسان لغة[1]، ما هو أحسن، وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٧]. وأحسن الشيء: أجاد صنعه ـ وفي التنزيل العزيز: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٤]. ـ وأتقنه، ويتسع أفق الكلمة فتنتسب إلى الله سبحانه وإلى عباده الصالحين، وتمتد إلى العمل والعلاقة بين الناس وما أكثرها وأشد حاجتها إلى الإحسان وتزيد اتساعاً فتنال المحسنين وما

---

(١) أنيس إبراهيم وآخرون ـ المعجم الوسيط، الناشر معجم اللغة العربية ط ٢، ١٩٧٢م مطابع دار المعارف بمصر.

أعظمهم على قلتهم ولا تترك المحسنات إحسانا يفرضه الإسلام ويوجبه الإيمان، وإذا اجتمع العدل والإحسان فقد سمي الأخير بمعنى الأول، ولذا قال الإمام علي في تفسير ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: الآية ٩٠] .

العدل والإنصاف، والإحسان، التفضل، وهذا على وجازته يفسح للإتقان والإجادة في كل أمر فوق المجازاة بالمثلية، والوقوف عند الحق وكفى[١].

وإن كلمة الإحسان تشمل كل البر وحسن الخلق، فقد جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو يعلى عن علي بن عبد الملك عن أبيه، قال: (بلغ الأكثم الصيفي مخرج النبي ﷺ فأراد أن يأتيه، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه، قال: فيأتيه من يبلغه عني ويبلغني عنه، فانتسب رجلان فأتيا النبي عليه الصلاة والسلام فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفي وهو يسألك من أنت؟ وما أنت؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: **أما من أنا، فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا، فأنا عبد الله ورسوله**.

قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: الآية ٩٠] ، فقالوا: ردد علينا هذا القول، فردد عليهم حتى حفظوه. فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألناه عن نسبه، فوجدناه زاكي النسب سمطاً في مضر، أي شريفاً. وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهن أكثم، قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهي عن ملائمها) جمع ملأم وهو مصدر ميمي من لؤم كقبح (أي دنو أصله) فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذناب، أما أكثم الذي رأى في الآية خير الرأي، فعربي، من أبلغ حكماء العرب، وهو القائل: البلاغه الإيجاز، ويكفي فهمه أن الآية أمرت بمكارم الأخلاق.

وتوضح الأحاديث النبوية معنى الإحسان توضيحاً دقيقاً من ذلك قوله ﷺ:

---

(١) الباز، محي الدين، مقال، القرآن الكريم، كتاب الإحسان، ص ٣٦، مجلة الهداية.

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

والحديث الثاني قوله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتله، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»[2].

فالحديث الأول عرف الإحسان بأنه مشاهدة الحق بالقلب، فيستحضر العبد أن الحق مطلع عليه يرى كل ما يعمل، وهذا يثمر خشية الله.

والحديث الثاني يفيد أن الله أوجب على الإنسان أن يتقن عمله في كل شيء فإذا تحقق المعنى الأول صدر عنه المعنى الثاني، إتقان العمل.

يقول سيد قطب رحمه الله[3]: (هذه الآيات تبدأ بالأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن إشراك شيء به، تبدأ بحرف عطف يربط بين هذا الأمر وهذا النهي، والأوامر السابقة الخاصة بتنظيم الأسرة يدل على الوحدة الكلية الشاملة المتكاملة في هذا الدين فليس هو مجرد عقيدة تستكن في الضمير ولا مجرد شعائر تقام وعبادات. ولا مجرد تنظيم دنيوي فتقطع الصلة بالعقيدة وبالشعائر التعبدية. إنما هو منهج يشمل هذا النشاط ويربط بين جوانبه ويشدها جميعاً إلى الأصل الأصيل، وهو توحيد الله والتلقي منه، ويلبي الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، والأمر بالإحسان إلى تلك المجموعات من الأسرة الخاصة، والأسرة الإنسانية. فالتشريعات والتوجيهات في منهج الله إنما تنبثق كلها من أصل واحد وترتكز على ركيزة واحدة، إنها تنبثق من العقيدة في الله).

وقد جاء في تفسير هذه الآية قول القرطبي[4]: (أجمع العلماء على أن

---

(١) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١، ص ١٥٧.

(٢) نفس المرجع السابق، جـ ١٣، ص ١٠٦.

(٣) قطب، سيد، في ظلال القرآن، م ٢، ص ٦٥٨، الطبعة العاشرة، دار الشروق، ١٩٨٢م، بيروت.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، م ٣، ص ١٨٠، ١٨٢.

هذه الاية من المحكم المتفق عليه، ليس منها شيء منسوخ، والاية أصل في خلوص الأعمال لله تعالى وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره. قال العلماء: فأحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان والتزام البر والطاعة له والإذعان، هما الوالدان).

كما دلت الأحاديث النبوية على ارتباط الأخلاق بالعقيدة ارتباطاً شديداً يجعل الخلق الكريم شعبه منه، وجزءاً لا يتجزأ. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**[1].

فربط بين عقيدة لا إله إلا الله، وبين فضيلة خلقية راقية «الحياء»، وبين معروف صغير يفعله المسلم وهو تنحية الأذى من طريق الناس.

والشعبة هي الخصلة أو الجزء، والحياء في اللغة تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وفي الشرع خلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، ولهذا جاء في الحديث الآخر: «الحياء كله خير»[2]، فإن قيل: الحياء من الغرائز، فكيف جعله شعبة من شعب الإيمان؟ أجيب بأنه قد يكون تخلقاً، ولكن استعماله وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب وعلم ونية، فهو من الإيمان.. لهذا، ولكونه باعثاً على فعل الطاعة، وحاجزاً عن فعل المعصية[3]. فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء»**[4]، بل نجد أن الحديث قد قرن بين هذه الفضيلة الخلقية، الحياء والإيمان وجعلهما شيئاً واحداً.. قال ﷺ: **«الإيمان والحياء قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»**[5].

---

(١) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ٢، ص ٦.
(٢) المرجع السابق، جـ ٢، ص ٧.
(٣) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، جـ ١، ص ٥٢.
(٤) مالك، الموطأ، جـ ١، ص ٩٠٥ دار إحياء التراث العربي، ط ١٩٥١م.
(٥) الحاكم، المستدرك، جـ ١، ص ٢٢.

جعل الرسول الكريم ﷺ، الخلق الكريم علامة مميزة للمسلم يوم يعلن عن إسلامه، وصفة يعرف بها بين الناس، فيقول ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[1].

وهو تعريف شامل جامع لكل الفضائل الخلقية والسلوك الراقي فالمسلم الحق هو الذي لا يصدر منه أي أذى لا بالقول ولا بالفعل.

[قال الخطابي: المراد أفضل المسلمين من جمع، مع أداء حقوق الله تعالى، أداء حقوق الناس، ويحتمل أن يكون المراد بذلك أن يبين علامة المسلم التي يستدل بها على إسلامه، وهي سلامة المسلمين من لسانه ويده وخص اللسان بالذكر لأنه يعبر عما في النفس.. وهكذا اليد، لأن أكثر الأفعال بها، ويحتمل أن يكون المراد بذلك الإشارة إلى الحث على حسن معاملة العبد مع ربه، لأنه إن أحسن معاملة إخوانه فأولى أن يحسن معاملة ربه من باب تنبيه الأدنى على الأعلى، وذكر المسلمين هنا خرج مخرج الغالب لأن محافظة المسلم عن كف الأذى عن أخيه المسلم أشد تأكيداً][2].

ثانياً، العبادة

ترتبط الأخلاق بالعبادات وبالعقيدة ارتباطاً وثيقاً، فلا عبادة بدون عقيدة، ولا عبادة إن لم يرافقها سلوك مهذب نظيف، وأخلاق إنسانية راقية.. فالإسلام ليس عقيدة فحسب ولكنه عقيدة وعبادة ونظام حياة، شمل جميع شئون الحياة، وسلوك الإنسان وأحكام الأخلاق والعبادات في تناسق بديع، وارتباط وثيق، حتى أنه يصعب فصل أي جزئية عن الأخرى، ويصبح العمل ببعضها دون الآخر، نقص في صفة الإسلام، ولتأكيد ذلك سوف نلقي نظرة على العبادات المخصوصة بهذا الاسم:

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، جـ ١ ص ٥٣.
(٢) المصدر السابق جـ ١، ص ٥٣.

١ ـ الصلاة:

تلك العبادة اليومية التي يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم فرضها الله على عباده لتكون لهم درعاً واقياً من الإثم والبغي والفحشاء والمنكر وسيئات الأقوال والأفعال، وتكون بمثابة المصل الواقي من سوء الخلق مع الخلق ورب الخلق وهي وسيلة عظيمة لتزكية النفس. قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٥].

يقول ابن كثير[١]: (يعني أن الصلاة تشتمل على شيئين: على ترك الفواحش والمنكرات، أي مواظبتها تحمل على ذلك). وقد جاء في الحديث من رواية عمران وابن عباس مرفوعاً: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً[٢].

فالمسلم إذا أقام الصلاة وأداها، بأركانها وشروطها وواجباتها على كمالها وتمامها بخشوع وإخلاص واستحضر مثوله بين يدي ربه، قطع دابر العجب والغرور وقطع دابر المنكر، وكانت له خير زاجر ومانع عن كل مايشين، وخير وازع ومعين على فعل الخير، فالصلاة تصل هذا العبد الضعيف بمصدر القوة والخير والعدل؛ من له الحكم وإليه المصير.

(فالصلاة قوة خلقية، وفي هذه القوة مدد، أي مدد لضمير المؤمن، يقويه على فعل الخير وترك الشر ومجانبة الفحشاء والمنكر، ومقاومة الجزع عند الشر والمنع عند الخير، فهي تغرس في القلب مراقبة الله تعالى، ورعاية حدوده، والحرص على الوقت والدقة في المواعيد، والتغلب على نوازع الكسل والهوى، وجوانب الضعف الإنساني)[٣]. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: الآيات ١٩-٢٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، جـ ٣، ص ٤١٤.

(٢) حديث موقوف.

(٣) القرضاوي، العبادة في الإسلام، ص ٢٢١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٧، ١٩٨٥م.

فمن مزايا صلاة الجماعة وآثارها على الفرد والمجتمع ما ذكره القرضاوي[1]: (الصلاة الإسلامية تربية اجتماعية رشيدة، ومدرسة إنسانية عالية على نسق فريد في تاريخ الأديان والعبادات. فالإسلام لم يكتف من المسلم أن يؤدي الصلاة وحده في عزلة عن المجتمع الذي يحيا فيه، ولكن دعاه دعوة قوية، إلى أدائها في جماعة وبخاصة في المسجد، يجتمعون خمس مرات في كل يوم في مسجد حيهم، ثم يجتمعون على نطاق واسع في صلاة الجمعة، وفي هذا الاجتماع تعليم وتوجيه وموعظة وتذكير، وإحياء لعاطفة الأخوة وتركيز للوحدة وإظهار للقوة).

وهكذا نرى كيف ارتبطت الصلاة بالأخلاق، وكيف كان إيجابها على المسلمين لإحياء الجوانب الخلقية العظيمة في نفس المسلم إحياء لعاطفة الأخوة، وزيادة روابط الوحدة، وإظهاراً للقوة.

٢ ـ الزكاة:

هذه الفريضة التي أوجبها الله في أموال الأغنياء للفقراء، وعالج بها مشكلة الفقر بنظام فريد، وعالج مشكلة المال بوجه عام.

فالزكاة طهارة للقلب والمال، طهارة للقلب من الشح والبخل وطهارة للمال ونماء، تجعل ما بقي حلالاً طيباً، وهي وسيلة من وسائل تزكية النفس، لأن النفس مجبولة على الشح، والشح رذيلة خلقية يجب تطهير النفس منها وتعويدها على البر والإنفاق.

والزكاة عبادة يشترط الشارع في إخراجها، أن تكون بكرم وطيب نفس مصحوبة بالخلق الرفيع والأدب الجم، فيخرجها من أطيب وأحسن الملك، من الجيد من المال والعروض والثمار الزروع، ومن السليمة الجميلة والسمينة من السائمة والأنعام. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ

---

(١) العبادة في الإسلام، ص ٢٢٣.

وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧] .

وفسّر ابن كثير[١] الآية ﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾ بقوله: (لو أن أحدكم أهدي له مثل ما أعطى ما أخذه إلا على إغماض وحياء. فكنا بعد ذلك، يجيء الرجل منا بصالح ما عنده.. وقال: نزلت في الأنصار، إذا كان أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ.. فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر يظن أن ذلك جائز. فأنزل الله هذه الآية فيمن فعل ذلك).

إن الآيات القرآنية التي حثت المسلمين على إخراج الزكاة والصدقة من أفضل الموجود كثيرة، لأن الله عز وجل لا يقبل الرديء الخبيث، ولذلك قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٢] .

إن الحكم التي شرعت من أجلها الزكاة كثيرة، فهي طهارة لنفس الغني، وطهارة لنفس الفقير، وصيانة للمجتمع من الفقر، وضمان اجتماعي، وتأمين وتكافل للأفراد جميعاً، فهذه كلها معانٍ عظيمة تدخل تحت مكارم الأخلاق..

(هي طهارة لنفس الغني من الشح البغيض، تلك الآفة النفسية الخطرة التي قد تدفع من اتصف بها إلى الدم فيسفكه أو العرض فيبذله، وهي طهارة لنفس الفقير من الحسد والضغن على ذلك الغني الكانز للمال. ومن شأن الإحسان أن يستميل قلب الإنسان، وهي طهارة للمجتمع من عوامل الهدم والتفرقة والصراع والفتن، وهي نماء وزيادة، نماء لشخصية الغني، وكيانه المعنوي، فالإنسان الذي يسدي الخير ويصنع المعروف، ويبذل من ذات نفسه ويده، لينهض بإخوانه في الدين والإنسانية، يشعر بامتداد في نفسه وانشراح واتساع في صدره، وأنه قد انتصر فعلاً على ضعفه وأثرته وشيطان شحه وهواه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣٢٠.

والزكاة أيضا نماء لشخصية الفقير، حيث يحس انه ليس ضائعا في المجتمع ولا متروكاً لضعفه وفقره. وهي وسيلة من وسائل الضمان الاجتماعي، فإن الإسلام يأبى أن يوجد في مجتمعه من لا يجد القوت الذي يكفيه والثوب الذي يواريه، والمسكن الذي يؤويه.. فهذه ضروريات، يجب أن تتوافر لكل من يعيش في ظل الإسلام)(١).

حذر القرآن من الخلق السيىء يتبع الصدقة والزكاة فيبطلها ويفقدها معناها ويحبط أجرها وثوابها. قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٣ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٣ ـ ٢٦٤]، وقيل: المن: أي يستخدمه بالعطاء، والأذى أن يعيره بالفقر. وقيل المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه، والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة. (فيقرر أن الصدقة التي يتبعها الأذى، لا ضرورة لها وأولى منها كلمة طيبة وشعور سمح، كلمة طيبة تضمد جراح القلوب، وتفعمها بالرضا والبشاشة، ومغفرة تغسل أحقاد النفوس، وتحل محلها الإخاء والصداقة..

فالقول المعروف والمغفرة في هذه الحالة يؤديان الوظيفة الأولى للصدقة، من تهذيب النفوس وتأليف القلوب، ولأن الصدقة ليست تفضلاً من المانح على الآخذ، وإنما هي فرض لله.. عقب عليه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٣] غني عن الصدقة المؤذية، حليم يعطي عباده الرزق فلا يشكرون)(٢).

ولذلك نجد أن الله عز وجل يمدح عباده المنفقين، الذين ينفقون في سبيله، فيخرجون الصدقات والزكاة بنفس طيبة، وأدب جم وخلق رفيع، فيعدهم بالثواب العظيم. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٦٢﴾ [البقرة: الآية ٢٦٢].

---

(١) القرضاوي، العبادة في الإسلام، ص (٢٥٨ ـ ٢٦١).

(٢) قطب، سيد، الظلال، م ١، ص ٣٠٨.

يمدح تبارك وتعالى في هذه الآية الذين ينفقون في سبيله ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات على من أعطوه، فلا يمنون به على أحد، ولا يمنون به لا بقول ولا فعل، ولا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان، ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل)[١].

بل اعتبر البخل (هذه الرذيلة الخلقية) سبباً للهلاك والبوار والخسران. قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٥].

يقول ابن كثير في تفسير القرآن العظيم[٢]: (ومضمون الآية، الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة). وفي المقابل جعل الله أجر السخي محبة الله فعقب على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٥]، ليبين لنا منزلة الخلق عنده ومنزلة الجود والكرم، فالإمساك عن الإنفاق هلاك للنفس بالشح، وهلاك للجماعة بالمنع والبخل.

٣ ـ الصوم:

فرض الله الصوم وبين الحكمة من تشريعه. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٣].

يقول تعالى مخاطباً المؤمنين من هذه الأمة وآمراً لهم بالصيام وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل، لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة[٣].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ١، ص ٣١٧.
(٢) المرجع السابق، ج ١، ص ٢٢٩.
(٣) المرجع السابق، جـ ١، ص ٢١٣.

والتقوى منبع الفضائل، او كما عرفها الحسن بن علي رضي الله عنه، قال: (هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل). فالعلة التي ذكرتها الآية وهي حصول التقوى لأن التقوى هي أس الفضائل، وبها يحصل المرء على خيري الدنيا والآخرة.

(فالصوم تقوية للإرادة، وتربية على الصبر، فالصائم يجوع وأمامه شهي الغذاء، ويعطش وبين يديه بارد الماء، ويعف ويجانبه زوجته، لا رقيب عليه في ذلك إلا ربه، ولا سلطان إلا ضميره، ولا يسنده إلا إرادته القوية الواعية، يتكرر ذلك نحو خمس عشرة ساعة أو أكثر في كل يوم، وتسع وعشرين يوماً أو ثلاثين في كل عام. فأي مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية وتعليم الصبر الجميل كمدرسة الصيام)(١).

وهكذا عرفنا كيف يحقق الصوم التقوى، فإذا سادت التقوى على القلب ساد الجمال في الطباع والأخلاق، وإذا ساد الجمال في الطباع والأخلاق سادت الألفة والمحبة في البيت والمجتمع، وإذا سادت المحبة والألفة في المجتمع ساد السلام في الأرض.

الصوم عبادة يحبها الله ويجزي عليها ما لا يجزي على غيرها من الفضائل والأعمال والعبادات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ، قال: «قال الله: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به»(٢).

ولكن هذه العبادة العظيمة لابد أن تؤدى بحسن خلق، فليس الصيام مجرد إمساك عن الطعام والشراب والشهوة، بل هو صوم الجوارح عن الآثام. فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (قال رسول الله ﷺ: «الصيام جنّة فلا يرفث، ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم مرتين»(٣).

---

(١) القرضاوي، العبادة في الإسلام، ص ٢٧٥.
(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، جـ ٤ ص ١٠٣، دار الفكر، القاهرة.
(٣) البخاري، صحيح البخاري، جـ ٢، ص ٢٢٦، دار الفكر (د. ت) القاهرة.

فكان من إرشاداته ﷺ للصائم أن يلتزم بالآداب الإسلامية والأخلاق الحسنة، والسلوك السليم، وأن يمتنع عن كل قول أو فعل مخل بالأدب، ومناف للأخلاق، ومن كل تصرف فيه أذى للغير، ولم يكتف بذلك بل يريد من المسلم أن يترفع عن ذلك ويستعلي عليه، فيمتنع حتى عن رد الأذى بمثله.

بل زاد على ذلك بأن توعد عليه الصلاة والسلام وتهدد المتهاون بتلك الإرشادات. فقال: **«من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»**[1]. فإذا لم يضبط المسلم سلوكه وتصرفاته ولم يملك نفسه عند الغضب، فخالف تلك الإرشادات أثناء صيامه، فقدمها عبادة خالية من الأخلاق، يأتي القرار الأخير منه ﷺ ببطلان هذه العبادة، ويعلن ذلك بقوله: **«رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش»**، فكما أن الطعام والشراب يفسد الصيام، فهكذا الآثام تقطع ثوابه وتحبط عبادته وتفسد ثمرته، فيصبح صياماً بلا ثواب.

٤ ـ الحج:

الحج هو الشعيرة الرابعة في الإسلام فرضها الله على كل مستطيع، وجعل تركه كفراً بالله، يشترط المولى سبحانه عند أدائه الأخلاق الفاضلة والانضباط التام في السلوك. قال تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٧].

فالحج لا بد أن يخلو من الرفث والفسوق والجدال (فالرفث التعريض بذكر الجماع وقيل: كل ما يعاب من قول أو فعل. والفسوق قيل: المعاصي، وقيل: الفاحش من القول كالسباب وخلافه. وقيل: الفسوق هاهنا السباب. قاله ابن عباس وابن عمر الزبير ومجاهد والسدي وإبراهيم والحسن. وقد يتمسك هؤلاء بما ثبت في الصحيح: (**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**)[2].

---

(١) المصدر السابق، م ٤، ص ٩٩.

(٢) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ٢، ص ٥٤.

ومعنى «ولا جدال» قيل أن المراد به هاهنا المخاصمة فعن عبد الله بن مسعود قال: أن تماري صاحبك حتى تغضبه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ولا جدال في الحج، المراد والملاحاة حتى تغضب أخاك وصاحبك فنهى الله عن ذلك)[1].

وقد جاء في الحديث الشريف ما يوضح ذلك ويبينه بما لا يدع مجالاً في القول بأنها تؤدى فقط وليس للأخلاق علاقة بذلك. هو قول الرسول ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[2].

فقبول هذه العبارة مشروط بالانضباط الأخلاقي في القول والفعل ويتضمن الحج معاني عظيمة كلها تدور في دائرة النظام الأخلاقي في الإسلام (فالحج تعويد للنفس على معانٍ: من استسلام وتسليم ومن بذل الجهد والمال في سبيل الله، ومن تعاون وتعارف ومن قيام لله بشعائر العبودية، وكل ذلك له آثاره في تزكية النفس. ولكي يؤدي الحج ثمراته الكاملة لابد من مراعاة الآداب والأعمال القلبية فيه، ومنها أن تكون النفقة حلالاً. وترك الرفث والفسوق والجدال، والرفث اسم جامع لكل لغو وخنا وفحش، ويدخل فيه مغازلة النساء والتحدث بشأن الجماع ومقدماته لأنه يهيج داعية الجماع المحظور. والفسق اسم جامع لكل معصية والجدال المبالغة في الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ويفرق في الحال الهمة ويناقض حسن الخلق[3].

هذا هو الإسلام في سموه وعظمته وشموخه وفي تشريعه، دين الأخلاق الفاضلة والمبادىء الإنسانية، الدين الذي يربي أفراده على الأدب والانضباط ومكارم الأخلاق.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ١، ص ٢٣٧.
(٢) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، جـ ٤، ص ٢٠.
(٣) حوى، سعيد، المستخلص في تزكية الأنفس، ص ٦٤، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٨٣.

٥ ـ الجهاد:

هو ذروة سنام الإسلام وهو قمة مكارم الأخلاق. إن المجاهد في سبيل الله يمثل القمة الإيمانية الحقة، وهو المثل الأعلى الذي يجب أن يحتذى في مكارم الأخلاق، فهو بجهاده في سبيل الله بماله ونفسه لتكون كلمة الله هي العليا يعد حامي الفضيلة وراعي الأخلاق وحارس الدين كله.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: الآية ١١١] . فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن حقاً وصدقاً، وتتمثل فيه حقيقة الإيمان وجوهره.

فوعدُ الله للمجاهدين يدل على أصالة عنصر الجهاد في سبيل الله في طبيعة المنهج الرباني باعتباره الوسيلة الكفيلة لحماية منهج الله، وحراسة دينه، ونشر دعوته وتحرير خلقه، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١] .

إن الذين باعوا هذه البيعة، وعقدوا هذه الصفقة مع الله هم الصفوة المختارة، هم القمة الإيمانية التي تتحلى بأعظم الأخلاق، وأكرم الصفات التي ذكرتها الآية التالية لهذه الآية (آية البيعة). وهذه الصفات الخلقية منها ما يختص بذوات أنفسهم في تعاملها المباشر مع الله في الشعور والشعائر، ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة في أعناقهم من العمل خارج ذواتهم لتحقيق دين الله في الأرض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام على حدود الله في أنفسهم وفي سواهم، فقد جمع كل ذلك قوله تعالى في صفاتهم ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: الآية ١١٢] .

فالجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاعة للقتال، إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال. والمؤمنون الذين

عقد الله معهم البيعة والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية[١] وخلقية أصيلة، فهم:

١ ـ التائبون:

مما أسلفوا، العائدون إلى الله، منيبين مستغفرين.

٢ ـ العابدون:

المتوجهون إلى الله وحده بالعبادة والعبودية في صورة عملية واقعية، وهي صفة خلقية ثابتة في أعماق نفوسهم تترجمها الشعائر والتوجه إلى الله وحده بكل عمل وبكل قول.

٣ ـ الحامدون:

الذين تنطوي قلوبهم على الاعتراف بنعم الله وتلهج ألسنتهم بحمده في السراء والضراء.

٤ ـ السائحون:

وتختلف الروايات فيهم فقيل: هم المهاجرون في سبيل الله وقيل: هم المجاهدون في سبيل الله. وقيل: هم المتنقلون في طلب العلم. وقيل: الصائمون، وقيل: هم المتفكرون في خلق الله وسننه. وكلها صفات خلقية عالية.

٥ ـ الراكعون الساجدون:

الذين يقيمون الصلاة ويقومون بالصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم ملازمة لهم وكأن الركوع والسجود طابع مميز لهم بين الناس جميعاً.

٦ ـ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر:

هذه صفة حراس المجتمع القائمون على أمر الله، خير خلق الله.

---

(١) قطب، سيد، في ظلال القرآن جـ ٣ ص ١٧١٩.

٧ - الحافظون لحدود الله:

القائمون على حدود الله لتنفيذها في النفس والمجتمع، فهم الصالحون المصلحون العاملون على إقامة شرع الله. (هذه هي الجماعة المؤمنة التي عقد الله معها بيعته وهذه هي صفاتها ومميزاتها، توبة ترد العبد إلى الله وتكفه عن الذنب وتدفعه إلى العمل الصالح، وعبادة تصله بالله معبوده وغايته ووجهته وحمداً لله على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل لله، والثقة المطلقة برحمته وعدله)[١].

وإذا كان الإسلام قد أباح القتال، فإنما أباحه لحماية الفضيلة، ونشر الدين ودفع البغاة وتحرير الخلق من ظلمات الجاهلية، وجور الطغاة، وإذا كان الرسول ﷺ جاء ليتمم مكارم الأخلاق، فإن جنود الله لن ينسوا الخلق والفضيلة، وهم إنما خرجوا ليحاربوا من أجل الدين والخلق والفضيلة.

وإذا كان الإسلام قد أباح القتال، فإنه قد أحاطه بسياج من الرحمة لم تبلغها مدينة القرن العشرين ولا تقرب منها. فقد سن أحكاماً وأوجب مراعاتها لتخفيف ويلات القتال، وهي خير ما عرف من قوانين الرحمة بالإنسان. وهذه الأحكام نراها تتفق مع أحكام القانون الدولي في كثير من المواضع إلا أنها تخالفها من جهة أنها أحكام دينية شرعها الدين، ويقوم بتنفيذها إيمان المسلمين أما أحكام القانون الدولي فليس لها قوة تنفيذية تكفل إمضاءها.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٠].

هذه الآية تحدد خطة الإسلام والمسلمين في الجهاد، فقتال المسلمين مبني على خلقين عظيمين لا زالت المدنيات الحديثة في حاجة إليهم.

الأول: العدل

فالقتال مقصور على المقاتلين فلا تقتل النساء ولا الأطفال ولا الرهبان

---

(١) المرجع السابق، جـ ٣، ص ١٧٣٠.

لأنهم لم يقاتلوا ولم يعتدوا فكان من توجيهاته ﷺ لأمير الجيش (اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، أغزوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً)[1]

يقول النووي: (وفي هذه الكلمات من الحديث فوائد مجمع عليها وهو تحريم الغدر وتحريم الغلول، وتحريم قتل الصبيان، إذا لم يقاتلوا وكراهة المثلة وتعريفهم ما يحتاجونه في غزوهم وما يجب عليهم وما يحرم عليهم وما يكره وما يستحب)[2].

وكذلك سار على نهج الرسول ﷺ خلفاؤه الراشدون فقد أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسامة بن زيد قبل مسيره إلى الشام بقوله: (لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تتلفوا نخلاً، ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له... إلخ)[3].

هذا هو القتال المحاط بسياج من الأخلاق الإنسانية والمبادىء والمثل العليا، فلا يبيح للمقاتل المسلم أن يغدر أو يخون أو يخدع ولا يتعرض للمسالم من الأعداء ولا يسمح له بأي حال من الأحوال أن يمثل حين يقتل، ولا أن يتجرد من إنسانيته فيترك للنفس هواها من حب للانتقام، أو من رغبة في التشفي حتى ولو كان ذلك الإنسان عدواً. وهذا يمثل القمة الأخلاقية السامقة التي تحلم بها البشرية حتى اليوم.

الثاني، الإحسان في القتل

فلا يكون القتل تعذيباً ولا تمثيلاً، بل يجهز عليه دون أن يعذبه أو

---

(١) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١٢، ص ٣٧.

(٢) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

(٣) ابن عساكر علي بن الحسن، تهذيب تاريخ ابن عساكر، جـ ١، ص ١١٧ - ١١٨ مطبعة روضة الشام، ١٣٣٠هـ.

يتعرض لخلقة الله بالتشويه والتمثيل ـ فإنما سمح له بقتل العدو لأنه عدو لله وللحق ـ فأمر بالإحسان في قتله. قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله قد كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»[1]

والقِتلة بكسر القاف، وهي الهيئة والحالة. وليحد، بضم الياء يقال: أحد السكين. بمعنى: وليرح ذبيحته بإحداد السكين وتعجيل إمرارها. وقوله ﷺ: «فأحسنوا القتلة» عام في كل قتيل. وهذا الحديث النبوي الشريف من القواعد الجامعة للإسلام، وهو حديث جليل عظيم الشأن لأنه يحث على الرحمة حتى بالحيوان الأعجم.

يبدأ الحديث: «بأن» المؤكدة، ثم جاء لفظ الجلالة الله بعدها صريحاً لتربية المهابة في نفس المؤمن، ثم إن كلمة «كتب» تفيد الإيجاب والفرض والإلزام، فقد شاركت كل كلمات الحديث في إبراز هذه الحقيقة الخطيرة «الإحسان» وتثبيتها في عالم الحس والنفس والضمير في كل شيء عادة وعبادة، وفي أي عمل كان واجباً أو مندوباً إليه. وحتى لو كان ذبحاً لشاة أو بقرة. فالحديث يلزم بالإحسان إلى البهيمة حتى وقت الذبح. وقد وردت أحاديث كثيرة توضح معنى الإحسان في ذبح البهيمة مفادها أن يسوقها إلى المذبح سوقاً رفيقاً بعيداً عن القطيع ويضجعها على شقها الأيمن، ثم يذكر الله ويذبحها بعد أن يكون قد شحذ شفرته «سكينه» ليجهز عليها بسرعة ويذبحها بأخلاق الإنسان الرحيم الفاضل فيكون المسلم بهذا حي الإحساس رقيق الشعور. هذا هو الإحسان قمة الرقي الخلقي والتمدن الحضاري وقمة الإتقان في الأداء.

فهل وعى المسلمون هذا الأدب العالي اليوم؟ وهل يلتزمون بهذه المعاملة الراقية مع الإنسان والحيوان؟ وهل التزم إنسان القرن العشرين بهذه الآداب؟!

إن الوحشية والقسوة وانعدام الخلق، بل انعدام الإنسانية قد بلغ مداه في

---

(١) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١٣، ص ١٠٦.

حروب الكفار الذين لا يقيمون للقيم الخلقية وزناً، ولا للإنسان اعتباراً. فحروبهم بأشكالها وألوانها قديماً وحديثاً، قد تخلت عن أبسط المبادىء الإنسانية والمفاهيم الأخلاقية بل نستطيع أن نقول إن القتال في حضارة القرن العشرين قد بلغ من الوحشية والقسوة والشناعة والبشاعة ما يندى له جبين الإنسان، وتترفع عن مثله الوحوش.

لقد اخترع إنسان حضارة اليوم ما يبيد المدن ويدمر القرى ويهلك الحرث والنسل ويقضي على الأخضر، واليابس، والإنسان، والحيوان في الأرض، والطير في الهواء والسمك في الماء!!

إن الاعتداءات السافرة على المدنيين الآمنين العزل بلغت من الفظاعة ما تقشعر من هول سماعه الأبدان. فأين الأخلاق التي يدعيها دعاة الحضارة والمدنية اليوم؟! إن أسلحة الدمار الشامل بأنواعها المحرمة دولياً تصب في كل يوم على الآمنين، فلا تصل إلى شيء إلا أهلكته ودمرته!!

فأين هذا من حضارة الإسلام، وأخلاق المسلمين التي تتعامل بالرحمة والرأفة، والعدل والإحسان، مع الإنسان والحيوان في السلم والحرب على حد سواء.

ثالثاً، المعاملات

إن من أعظم مميزات النظام الإسلامي أنه نظام أخلاقي تقوم تشريعاته وتنظيماته وكل معاملاته على أساس خلقي متين، فلا يوجد عمل واحد في الإسلام صغر أو كبر خارج عن نطاق الأخلاق، أو قائم على غير ذاك الأساس الأخلاقي الشامل الذي يشمل كل تصرفات الإنسان ويجعلها علاقة بين الإنسان وربه قبل أن تكون علاقة بين فرد وفرد.

فالحياة في ضوء الإسلام نظام خلقي يقوم على إشاعة الفضيلة بين أفراد المجتمع وإقامة العدل في نظامها السياسي وتنفيذ أحكام الشرع، ونظام اجتماعي نواته الأسرة الصالحة وركيزته التكافل والتراحم، ونظام اقتصادي لحمته العمل

والإنتاج، وتحقيق العدالة الاجتماعية فالعقيدة من الشريعة كالثمرة من الشجرة فلا بد من التلازم بين العقيدة التي تستقر في القلب وآثارها التي تظهر في السلوك والمعاملات والعلاقات بين الأفراد والجماعات.

فالباحث في فقه المعاملات يرى بوضوح أن الخلق القويم والنهج المستقيم هو الأصل وأن العدل والإحسان هو القاعدة. وهذا ما سأوضحه عند استعراضي لأنواع من المعاملات.

أ ـ النظام الاقتصادي:

يقوم أصلاً على قاعدة خلقية كبيرة وهي قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٥]، فلا ربا ولا استغلال، ولا احتكار ولا غبن ولا غرر ولا غش ولا خبث في الاقتصاد الإسلامي، بل تجارة قائمة على تبادل المنافع، وعلى التراضي. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ﴾ [النساء: الآية ٢٩]. ويقول ابن كثير[1] في تفسير الآية: (ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار. وما جرى مجرى ذلك، من سائر صنوف الحيل وإن ظهرت في غالب الحكم مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا).

فكل صفقة سواء كانت مشاركة أو مضاربة أو مرابحة أو مؤاجرة، بل كل بيع أو شراء، يتضرر فيه أحد الطرفين يكون في حكم الشرع باطلاً، بينما نرى الاقتصاد اليوم، في غيبة الأخلاق، في حضارة القرن العشرين قد فصل الاقتصاد عن الأخلاق، فكان نتيجة ذلك ما نراه اليوم من أزمات اقتصادية كبيرة تطالعنا بها الصحف والمجلات كل يوم، وما نراه من فقر الإنسان وفاقته بل موته جوعاً، حيث عمت المجاعات أغلب المعمورة رغم التقدم التكنولوجي والإنتاج المادي الضخم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٤٧٩.

ب ـ نظام الأسرة:

إن من أبرز العلاقات الاجتماعية التشريعات الخاصة بالأسرة فالعلاقة الزوجية بين الزوجين في شريعة الإسلام تقوم على ثلاث أسس خلقية عظيمة:

١ ـ المعروف والإحسان:

فوصف الله عز وجل التعامل بين الزوجين على أنه تعامل بالمعروف لأن السمة الأصلية الثابتة لكل المعاملات هي أن تكون بالمعروف، وقد تكرر ذلك في القرآن الكريم. قال تعالى موصياً الأزواج: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: الآية ١٩] . يقول ابن كثير في تفسير القرآن العظيم(١): (أي طيبوا أقوالكم لهن وأحسنوا أفعالكم وهيأتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله).

وقال تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٣١] . جاء في الظلال(٢): (إن المعروف والجميل والحسنى يجب أن تسود جو هذه الحياة سواء اتصلت حبالها أو انفصمت عراها، ولا يجوز أن تكون نية الإيذاء والإعنات عنصراً من عناصرها ولا يحقق هذا المستوى الرفيع من السماحة في حالة الانفصال والطلاق، التي تتأزم فيها النفوس، إلا عنصر أعلى من ملابسات الحياة الأرضية، عنصر يرفع النفوس عن الإحن والضغن ويوسع من آفاق الحياة ويمدها وراء الحاضر الواقع الصغير.. هو عنصر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، وتذكر نعمة الله في شتى صورها ابتداء من نعمة الإيمان أرفع النعم إلى نعمة الصحة والرزق، واستحضار تقوى الله والرجاء في العوض منه عن الزوجية الفاشلة والنفقة الضائعة وهذا العنصر الذي تستحضره الآيتان اللتان تتحدثان عن إيثار المعروف والجميل والحسنى سواء اتصلت حبال الحياة الزوجية أو انفصمت عراها).

---

(١) جـ ١، ص ٤٦٦.
(٢) قطب، سيد، جـ ١، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

وحتى يتم الزواج أو الفراق بنفس الأخلاق الراقية العظيمة، قال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٩]

٢ ـ العدل:

بتحقيق المساواة وهي المعاملة بالمثل قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٨] .

فعندما فرض الله عز وجل على كل منهما واجبات أعطى في المقابل لكل منهما حقوقاً ليستشعر كل منهما العدالة في قرارة نفسه، فيكون كل منهما أقدر على العطاء فيعيشان في سعادة ووئام. يقول القرطبي[1] في تفسير هذه الآية: (أي ولهن من حقوق الزوجية على الرجال مثل ما للرجال عليهن ولهذا قال ابن عباس: إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي، وما أحب أن أستنظف كل حقي الذي لي عليها فتستوجب حقها الذي لها علي، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٨] أي زينة في غير مأثم، وعنه أيضاً: أي لهن من حسن الصحبة والعشرة بالمعروف مثل الذي عليهن من الطاعة فيما أوجبه عليهن لأزواجهن).

وفي ذلك يقول محمد دروزة[2]: (إنما تعني الآية فيما تعنيه أن كل ما يحق للزوج طلبه وانتظاره من زوجته من أمور مشروعة من طاعة وأمانة وعفة وإخلاص وحسن معاشرة ومعاملة، ومودة واحترام وثقة وتكريم وبر وترفيه ومراعاة مزاج ورعاية مصلحة وقضاء حاجات وعدم مشاكسة وعنف وبذاءة ومضاربة ومضايقة وأذى وسوء خلق وتكبر وتجبر وازدراء وتكليف ما لا يطاق ـ يحق للزوجة طلبه وانتظاره من زوجها).

٣ ـ الشورى:

فالإسلام يجعل العلاقة بين الزوجين قائمة على مبدأ الشورى، فلا تحكم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، جـ ٣، ص ١٢٣.

(٢) المرأة في القرآن والسنة، ص ٣٠، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦٧م.

ولا تسلط فالتفاهم على امر من الامور يتعلق بهما يجب آن يتم بالتشاور قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: الآية ٢٣٣].

وهذه الآية تبين حكم المرأة المطلقة، فإذا كان هذا هو حق المطلقة في الشورى والتراضي والتفاهم على ما فيه مصلحة الطفل، فمن باب أولى أن يكون هو حق الزوجة، القائمة في البيت على رعاية جميع شؤونه.

(فلا ينبغي أن يتخذ أحد الوالدين من الطفل سبباً للابتزاز ولا للاستغلال، ولا يشغل الأب عواطف الأم وحنانها ولهفتها على طفلها ليهددها فيه أو تقبل رضاعه بلا مقابل، ولا تستغل هي عطف الأب على ابنه وحبه له لتثقل كاهله بمطالبها)(١).

بل إن الرسول ﷺ عند تقييم الزوج، فإنما يقيمه بأخلاقه فيجعل أفضل الأزواج هو من كان أحسن الأزواج لأهله، فقال عليه الصلاة والسلام: «وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً»(٢).

بل إن الإسلام ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فهو يطلب من المسلم أن يتأدب وينضبط سلوكياً، ويلتزم بالأدب والذوق حتى في حالة انفصال عرى المحبة وفي أصعب المواقف وأحرج اللحظات ـ حالة الفراق إلى غير رجعة ـ لم ينس القرآن أن يحث المسلم على ذلك فيقول عز وجل موصياً الزوج الراغب في الطلاق بعدم التعدي: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: الآيتان ٢٠،٢١] . وقوله: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢٣٧] ، والفضل هو الزيادة على الحق.

فالطلاق يصبح هو الحل في حالة عدم تمكن الزوجين من الاستمرار في حياة زوجية مشتركة يسودها الود والحب، ولكن الطلاق الذي يريده الشارع

(١) قطب، سيد، في ظلال القرآن، جـ ١، ص ٢٥٤.
(٢) الترمذي، الجامع الصحيح، جـ ٣، ص ٤٦٦.

الحكيم طلاقا بالمعروف (فعندئذ تنطلق المرأة بما أخذت من صداق وما ورثت من مال لا يجوز استرداد شيء منه ولو كان قنطاراً من ذهب فأخذ شيء منه إثم واضح، ومنكر لا شبهة فيه ومن ثم لمسة وجدانية عميقة في تعبير مُوحٍ عجيب ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ ويدع الفعل أفضى بمفعول محدد يدع اللفظ مطلقاً يشع كل معانيه ويلقي كل ظلاله ويسكب كل إيحاءاته فيتضاءل إلى جواره ذلك المعنى المادي الصغير)(1).

كما ينهى الله الأزواج عن المضارة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: الآية ١٩] . أي لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه. يقول ابن كثير: (ولا تقهروهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن. يعني الرجل تكون له المرأة، وهو كاره لصحبتها ولها عليه مهر. يضرها لتفتدي به)(2).

إن الضوابط الأخلاقية التي وضعها الشارع للطلاق كثيرة نجدها في سورتي البقرة والطلاق بالتفصيل، حماية وحفظاً لحقوق النساء، أذكر إحدى هذه الحالات وهي حالة الطلاق قبل الدخول. قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: الآيتان ٢٣٦، ٢٣٧] . فالواجب على الزوج في حالة الطلاق أن يعطي مطلقته المتعة، وذلك أن يمنحها عطية حسبما يستطيع كنوع من التعويض له قيمته النفسية، لأن الانفصال ينشيء جفوه ممضة في نفس المرأة ويجعل الفراق طعنه عداء وخصومة، فالمتعة تذهب تلك الجفوة وتزيل الشعور بالبغض والحقد، ويشيع جواً من الراحة ونسمة طيبة من الإحسان.

---

(١) قطب، سيد، في ظلال القرآن، جـ ١، ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ١، ص ٤٦٥.

فيخلع على الطلاق جو الأسف والأسى فهي محاولة فاشلة إذن وليست ضربة مسددة، ولهذا يوصي أن يكون المتاع بالمعروف استيفاء للمودة الإنسانية واحتفاظاً بالذكرى الكريمة ويلوح بالمعروف والإحسان فيندى بها جفاف القلوب واكفهرار الجو المحيط يلاحقها باستجاشة شعور التقوى ويلاحقها باستجاشة شعور السماحة والتفضل ويلاحقها باستجاشة شعور مراقبة الله ليسود التجمل والتفضل جو هذه العلاقة ناجحة كانت أم خائبة، ولتبقى القلوب نقية خالصة صافية موصولة بالله في كل حال)[١].

ومما يتمشى مع الإيحاءات القرآنية في هذا المجال تقرير المتعة لكل مطلقة المدخول بها وغير المدخول بها، والمفروض لها وغير المفروض لها. قال تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤١] . لما في المتعة من تندية لجفاف جو الطلاق وترضية للنفوس الموحشة بالفراق، وفي الآية استجابة لشعور التقوى وتعليق الأمر به[٢].

جـ ـ القانون الدولي:

وهو ما يسمى العلاقات الدولية بين الدولة الإسلامية وغيرها من الأمم، إن هذا القانون قد حدد هذه العلاقات تحديداً حاسماً، تضمن علاقاتها مع الدول والمجتمعات الأخرى بكل أشكالها في حالتي السلم والحرب، وهو في مجموعه يعطينا صوراً مضيئة للأخلاق الإنسانية والمبادىء السامية، ومن ذلك الوفاء بالمواثيق، فلقد كان الوفاء بالعهود والمواثيق من أعظم ما تمسك به المسلمون، بينما نجد الأمم قديماً وحديثاً تبرم المواثيق والعهود، حين تراها صفقة رابحة أو حين تضطر مقهورة إلى إبرامها ثم تنقضها كلما رأت في نقضها مصلحتها.

فقد كانت الأمة الإسلامية حريصة على الوفاء بميثاقها حتى ولو كان في

---

(١) قطب، سيد، في ظلال القرآن، م ١، ص ٢٥٧.
(٢) قطب، سيد، المرجع السابق، ص ٢٥٩.

ظاهر الأمر هو للمسلمين صفقة خاسرة كما حصل ذلك في صلح الحديبية، وهذا الحرص الشديد من المسلمين على الوفاء بمواثيقهم لهو استجابة واقعية لأمر الله لهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٤] . ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: الآية ٩١] . ولم تكن هذه المبادىء شعارات ترفع، وإنما كانت وقائع عملية في حياة المسلمين لأنهم نظروا للنظام الأخلاقي على أنه عبادة وعلاقة بين الإنسان وربه قبل أن تكون علاقة بين فرد وفرد، أو بين الفرد والمجتمع.

فالوفاء بالعهود والمواثيق وتحريم الغدر والخيانة في الظاهر والخفاء من أحكام الإسلام القطعية النافذة على الأفراد والجماعات.. وليس مجرد مبدأ خلقي يستعمل حيناً ويهمل حيناً آخر حتى تصبح المعاهدة مجرد قصاصة ورق ـ كما هو الحال في العرف الدولي(١).

ومن ثم فقد أسس الإسلام علاقته مع غير المسلمين على المسالمة والأمن لا على الحرب والقتال ما دام السبيل ميسراً لنشر دين الله وإبلاغ رسالته للناس دون أن يحول الحكام الطغاة بين الدعوة وشعوبهم.

د ـ القضاء:

إن أهم ما يميز القضاء في ظل الشريعة العدل والمساواة أمام القانون، ولأهمية الناحية الخلقية في منصب القضاء نهى الشارع الحكيم أن يحكم القاضي وهو غضبان أو متأثر بمرض أو جوع أو عطش أو حر أو برد أو سآمة أو كسل، فقد ورد في الحديث عن عبد الرحمٰن بن أبي بكرة قال: كتب أبي وكتبت له إلى عبيد الله بن أبي بكرة وهو قاضي السجستان أن لا تحكم بين

(١) الزحيلي وهبة، آثار الحرب في الفقه الإسلامي ص ١٤١ المكتبة الحديثة دمشق ١٩٦٥م.

اثنين وأنت غضبان فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان»[1].

(يقول: وفيه النهي عن القضاء في حال الغضب. قال العلماء: ويلتحق بالغضب كل حال يخرج الحاكم فيها عن سداد النظر واستقامة الحال كالشبع المفرط والجوع المقلق والهم والفرح البالغ ومدافعة الحدث وتعلق القلب بأمر، وكل هذه الأحوال يكره له القضاء فيها خوفاً من الغلط)[2].

لقد التزم القضاة بآداب الإسلام وأخلاق الشرع في الرعيل الأول وسطر لنا التاريخ القصص العجيبة التي كانت أغرب من الخيال كقصة علي رضي الله عنه والدرع واليهودي، وقصة عمر بن الخطاب وابن القطبي، وهذا يدل على أن الأمة الإسلامية قد طبقت العدل في عالم الواقع ولم ترفعها شعارات خاوية، ولم تنادي بها كمثل عليا.

هـ ـ الرقيق والخدم:

لقد حظي الرقيق والخدم في ظل الشريعة الإسلامية برعاية فائقة ومعاملة فريدة من نوعها، فقد أمر الله عز وجل المسلم أن يعامل خدمه ورقيقه معاملة خاصة تقوم على العدل والرفق، فقد أمر بالإحسان إليهم، عندما أمر بالإحسان إلى الوالدين وبقية فئات المجتمع في قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: الآية ٣٦] . . . إلى قوله ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: الآية ٣٦] .

(وقوله تعالى: ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ وصية بالأرقاء لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس، فلهذا ثبت عن رسول الله ﷺ أنه جعل يوصي أمته

(١) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١٢، ص ١٥.
(٢) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

في مرض الموت يقول: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**»[1]. فجعل يرددها حتى مات يفيض بها لسانه)[2].

وكان من توجيهاته ﷺ للإحسان في معاملتهم أن يشاركوهم في مأكلهم وملبسهم وأن يساعدوهم فيما شق عليهم من عمل، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**للملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق**»[3].

وكان من وصيته ﷺ في الإحسان إلى الخدم أنه قال: «**إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم**» والخول هم الخدم سموا بذلك لأنهم يتخولون الأمور أي يصلحونها[4].

بل إن الإسلام ارتقى في معاملة الخدم إلى مرتبة عليا فلم يسمح للمسلم أن يحقر رقيقه أو خدمه أو حتى يجرح مشاعرهم، بل حافظ على كرامتهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ولا يقل أحدكم عبدي أمتي، وليقل فتاي، فتاتي، غلامي**»[5].

وهكذا ضمن الإسلام للرقيق حقوقه الإنسانية، وعامله كفرد داخل الأسرة المؤمنة لا كطبقة ثانية مكلفة بالخدمة مهضومة الحقوق ـ كما هو الحال في المدنيات القديمة والحديثة.

كما أن نظام المكاتبة خير شاهد على كرامة الرقيق في ظل الشريعة الإسلامية.

---

(١) ابن ماجه الحافظ أبو عبد الله بن يزيد القزويني ت ٢٧٥هـ، سنن ابن ماجه جـ ٢، ص ٩٠، المكتبة العلمية، بيروت.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ١، ص ٤٩٥.
(٣) ابن حجر، فتح الباري جـ ٥، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.
(٤) المصدر السابق، ص ١٧٧.
(٥) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١٥، ص ٧.

ومن الأحاديث الكثيرة التي جاءت في إحسان معاملة الخدم أختار هذا الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه وَلِيَ علاجه**»[1].

وفي رواية: ولي حَرّه وعلاجه. أي عند تحصيل آلاته. وقيل: وضع القدر على النار. ويؤخذ من هذا أنه في معنى الطباخ لتعلق نفسه به، بل يؤخذ منه الاستحباب في مطلق خدم المرء ممن يعاني ذلك. وهكذا يكون الإحسان للخدم في دين الله (دين الإحسان).

(1) ابن حجر، فتح الباري، جـ ٥، ص ٥٨١.

الفصل الثالث

القيم الخلقية الأساسية لبناء المجتمع المسلم

إن القيم الخلقية الأساسية لبناء المجتمع كما جاءت في الكتاب والسنة هي قيم ثابتة منبثقة عن عقيدة صحيحة وتستند على أساس متين هو الإيمان بالله، الذي جعل اعتناقها ديناً يثاب فاعلها ويعاقب تاركها لتجعل من الفرد المسلم الملتزم بتلك القيم نموذجاً للفرد الفذ والإنسان الاجتماعي التقي النقي الخلوق المهذب، ولتبني مجتمعاً إسلامياً فريداً من نوعه.

إن رقي المجتمعات لا يقاس بما حققت من إنجازات أو اكتشفت من مخترعات فقط بل بسيادة القيم الإنسانية فيها من عدل ومساواة وحب وإخاء وبذل وإيثار واستقامة ونظافة في السلوك والمعاملات.

ومن أهم هذه القيم الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل باختلاف الزمان والمكان ما يلي:

١ ـ العدل:

إن موضوع العدل في الإسلام من المواضيع الأساسية التي لا يمكن التهاون فيها فالآيات الكثيرة التي أمر الله فيها بالعدل تتسم بالجدية والحزم، فيأمر الله عز وجل عباده المؤمنين بإقامة العدل فيقول عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: الآية ٩٠].

والعدل أن تعطي الآخر حقه كاملاً غير منقوص، فالحكم بين الناس يحتاج إلى عدل والتعامل مع الناس يحتاج إلى الإحسان، ولذا فإن الله عز وجل

امر بالعدل والإحسان، وبمقدار التطبيق الحقيقي للعدل يقاس رقي المجتمعات وتخلفها وصلاحها وفسادها، فالعدل أخطر قيم المجتمع على الإطلاق. والمقصود من العدل هو أن تخضع لمعايير عادلة جاء بها القرآن والسنة، فالعدل في ظل الشريعة الإسلامية هو العدل الرباني، العدل الذي لا يميل مع الهوى ولا يتأثر بالأغراض الشخصية ولا المصالح. قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: الآية ١٣٥] .

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين في الآية أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل فلا يعدلوا عنه يميناً أو شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عنه صارف وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه شهداء لله ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: الآية ١٣٥] أي أدوها ابتغاء وجه الله فحينئذ تكون صحيحة عادلة ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: الآية ١٣٥] أي أشهد بالحق ولو عاد ضرره عليك، وإذا سئلت عن أمر فقل الحق فيه، ولو عادت مضرته عليك وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك[١] .

فالآية توجه المسلم أن يكون موضوعياً في أحكامه بعيداً عن الهوى والعصبية مطبقاً للعدل الرباني الذي لا يتأثر بالعوامل النفسية (إنه نداء للذين آمنوا. ولاتصافهم بهذه الصفة كان التكليف بهذه الأمانة الكبرى، إنها أمانة القيام بالقسط على إطلاقه، حسبة لله وتعاملاً مباشراً معه وتجرداً من كل ميل ومن كل هوى ومن كل مصلحة ومن كل اعتبار)[٢].

فالعدل في الإسلام معناه العدل مع الجميع، مع الصغير والكبير، والعدو والصديق، والغني والفقير، والمسلم وغير المسلم. العدل حتى مع الكراهية

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ١، ص ٥٦٥.
(٢) قطب، سيد، الظلال، جـ ٢، ص ٧٧٤.

والبغض وهو قمة العدل، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: الآية ٨] . أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً[١].

إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله. وما من اعتبار من اعتبارات الأرض كلها يمكن أن يرفع النفس البشرية إلى هذا الأفق غير القيام لله. وما من عقيدة أو نظام في هذه الأرض كلها يمكن أن يرفع النفس البشرية إلى هذا الأفق غير القيام لله، وما من عقيدة أو نظام في هذه الأرض يكفل العدل المطلق للأعداء المشنوئين كما يكفله لهم هذا الدين وبهذه المقومات[٢].

ولقد قامت هذه الأمة بهذه المهمة فحققت معنى العدل في واقع الأرض واقعاً لم تشهد البشرية مثله، فقد ضرب لنا المسلمون أروع الأمثلة ابتغاء مرضات الله ونقل لنا التاريخ صوراً منها تقف البشرية أمامها ذاهلة عاجزة وكأنها أساطير. والسيرة النبوية، وسير الصحابة رضوان الله عليهم حافلة بها (فهذا عبد الله بن رواحة لما بعثه النبي ﷺ يحصي ثمار خيبر وزروعها لمقاسمتهم بحسب العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ـ وذلك بعد فتح خيبر ـ ولما أرادوا رشوته ليرفق بهم قال: «والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ ولأنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه، وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم» فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض)[٣].

ومما وعاه التاريخ وقفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بجانب خصمه اليهودي الذي سرق درعه أمام القاضي الذي لم يمنعه إكباره وإجلاله لأمير المؤمنين أن يطلب منه البينة على سرقة اليهودي درعه، ولما لم

---

(١) ابن كثير، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٠.
(٢) قطب، سيد، الظلال، جـ ٢، ص ٨٥٢.
(٣) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد توفي عام ٢٠٧هـ، المغازي، جـ ٢، ص ٦٩١ مطبعة جامعة اكسفورد لندن، ١٩٦٦م.

يجد امير المؤمنين البينة حكم القاضي لليهودي على امير المؤمنين[1].

والتاريخ الإسلامي حافل بأمثال هذه الأخبار الدالة على سيادة الحق والعدل في المجتمع الإسلامي وحرية القضاء واستقلاله في المحكمة الإسلامية.

ويدخل تحت العدل استخدام قاعدة التحكيم بين المتنازعين وهي إجراءات عملية وضعها القرآن لمواجهة ما يقع في المجتمع من خلاف وفتن وقلاقل تخلخل كيانه لو تركت بغير علاج. قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: الآية ٩].

فيواجه هذه الخلافات بإجراءات عملية منبثقة من حقيقة العدل والإصلاح من تقوى الله والرجاء في رحمته ورضاه، فوضعت بذلك دستوراً أخلاقياً وقاعدة تشريعية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك تحت النزوات والاندفاعات هي (نظام التحكيم).

ثم يأمر الله عز وجل بإقامة العدل في البيع والشراء وفي الأخذ والعطاء، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: الآية ١٥٢]. وقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾ [الإسراء: الآية ٣٥]. وذلك في حدود الطاقة بتحري العدل والإنصاف فيكون العدل هو قاعدة التعامل الذي تستقيم به الحياة، فتتم المبادلات التجارية بميزان العدل المرتبط بهدي العقيدة تضبطه مراقبة الله عز وجل. ويأخذ الإسلام بيد المسلم ليقول كلمة الحق والعدل ولو كان ذا قربى. فمن عهد الله توفية الكيل والميزان، ولذا عقب عليها بقوله: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: الآية ١٥٢]. وفي هذا دلالة

(١) وكيع، محمد بن خلف بن حيان، أخبار القضاة، جـ ٢، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ عالم الكتب، بيروت.

على تسوية الدين بين العقيدة والشريعة وبين العبادة والمعاملة، مرتبطة كلها في كيانه الأصيل. فالتطفيف في الكيل والوزن ظلم ينافي العدل ويفسد التجارة ويدمر الاقتصاد.

٢ ـ المساواة:

من القيم الكبرى التي جاء بها الإسلام وقررها القرآن المساواة، وهي مبدأ أصيل من مبادىء هذا الدين العظيم، مبدأ منبثق من وحدة الأصل والمنشأ ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: الآية ١].

فالأب واحد والأم واحدة، والناس جميعاً من أسرة واحدة يخاطب الله عز وجل في هذه الآية الناس كافة. ليتأملوا هذه الحقيقة التي إن أدركها الناس عاشوا حياة إنسانية كريمة، فلا مكان للتمايز القبلي والتفرقة العنصرية.

فالإسلام ينظر إلى الناس بمختلف أجناسهم وشعوبهم ولغاتهم بنظرة الوحدة الإنسانية المنبثقة من وحدة الأصل والمنشأ، فما خلق الله تعالى هذه الألوان والأجناس لكي يتدابروا ويتقاطعوا بل لكي يتعارفوا ويتعاونوا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ [الحجرات: الآية ١٣].

(يهتف بالإنسانية على اختلاف أجناسها وألوانها ليردها إلى أصل واحد وإلى ميزان واحد وهو الذي تقوم به تلك الجماعة المختارة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [الحجرات: الآية ١٣] والذي يناديكم هو الذي خلقكم وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل، إنها ليست التناحر والخصام إنما هي التعارف والوئام، فأما اختلاف الألسنة والألوان واختلاف الطباع والأخلاق فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق.

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وجميع القيم، ويرتفع ميزان واحد لقيمة

واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر. والكريم حقا هو الكريم عند الله»[١].

فالآية تؤكد حقيقة عظمى لو استقرت في النفوس لزالت كل الحزازات والعصبيات القبلية والعنصريات البغيضة والتمايز الطبقي.

بهذا المبدأ قضى الإسلام على العصبية الجاهلية بتعاليمه الإنسانية ووضع ميزاناً للتفاضل بين الناس، وهو التقوى، كما أن توجيهاته ﷺ في هذا الصدد كثيرة، منها ما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «**أكرمهم عند الله أتقاهم**»[٢].

لقد رسخ عليه الصلاة والسلام بسننه القولية والعملية أصول العقيدة ومبادىء الإنسانية السامية والتي من أهمها مبدأ المساواة فقال: «**إن ربكم واحد وإن دينكم واحد وأبوكم آدم، وآدم خلق من تراب فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى**»[٣].

وحارب العصبية القبلية وقضى عليها للآثار السيئة الكثيرة المترتبة عليها واعتبر التمسك بها عملاً من أعمال الجاهلية، قال عليه الصلاة والسلام: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والنياحة والاستسقاء بالنجوم**»[٤].

وكان عليه الصلاة والسلام ينبه المسلمين إلى نبذها وترك التفاخر بالآباء والأجداد فقال: «**قد أذهب الله عنكم عبية الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن**

---

(١) قطب، سيد، في ظلال القرآن، جـ ٦ ـ ص ٣٣٤٨.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، جـ ٤، ص ١١١، دار الطباعة العامرة، اسطنبول (د. ت).

(٣) الحافظ الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر ت ٨٠٧، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ جـ ٨، ص ٩٨٤، مكتبة القدسي، ١٣٥٢هـ.

(٤) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ٦، ص ٢٣٥ ـ ط ١، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٣٨٧هـ.

تقي، وفاجر شقي، والناس بنو آدم من تراب»[١].

فإن مزية الإسلام الجوهرية هي الدعوة إلى المساواة، فهذا الدين يقوم على التوحيد والوحدة فهما صنوان لا يفترقان (فأبناء هذه الأمة المسلمون كما قال ﷺ: **«تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم»**)[٢].

وكان من توجيهاته ﷺ المستمرة في هذا الباب لتصحيح مفاهيم الصحابة من موروثات الجاهلية وتصحيح الموازين التي يقيّم بها الناس بعضهم بعضاً ما رواه البخاري بسنده (عن سهل بن سعد الساعدي قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع وإن قال: أن يسمع، قال ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع ـ فقال رسول الله ﷺ: **«هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا»**[٣].

فصحح عليه الصلاة والسلام ما كان متعارفاً عليه في الجاهلية وما هو متعارف عليه ـ حتى يومنا هذا ـ في الجاهلية الحديثة من تقييم الناس بالمظهر والمكانة والمنصب والغنى، فبين أن كل هذه المظاهر والأشكال لا قيمة لها إنما التقوى والورع هو المعول عليه، فكان هذا توجيهاً نبوياً كريماً للمسلمين للالتزام به، وترك ما كان متعارفاً عليه في المجتمع.

فاستطاع عليه الصلاة والسلام بتلك التوجيهات أن يرسم للإنسانية معالم المدينة الفاضلة ويقضي على النعرات والعصبيات.

فحقق المسلمون معنى المساواة على حقيقته حين جلس بلال الحبشي

---

(١) الترمذي ـ محمد بن عيسى ـ الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي جـ ٥ ـ ص ٦٩١.

(٢) الآبادي، محمد شمس الحق. عون المعبود، شرح سنن أبي داود، جـ ١٢ ص ٢٦٠، المكتبة السلفية، الطبعة الثانية، المدينة المنورة ١٩٦٨م.

(٣) ابن حجر ـ فتح الباري. جـ ٩، ص ١١٠ ـ ١١١.

وصهيب الرومي وسلمان الفارسي جنباً إلى جنب مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في القمة من العرب ومع العباس وعلي في القمة من قريش.

٣ ـ الإخاء:

يتميز المجتمع الإسلامي بسيادة شعور المحبة والإخاء فيه، ذلك أن رابطة الأخوة في الله تقوم على عقيدة إيمانية راسخة ـ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرات: الآية ١٠].

فالأخوة في الله من أوثق روابط النفوس وأمتن عرى القلوب وأسمى صلات العقول والأرواح، لأن الأخوة الإيمانية جزء لا يتجزأ من العقيدة التي تربط بين قلوب معتنقيها بأواصر لا تنفصم، ولأن رابطة العقيدة لا تعدلها أي رابطة أخرى من نسب أو جنس أولون أو لغة أو جوار أو مصالح مشتركة، فهذه كلها تظل رابطة سطحية لا تكاد تجمع حتى تفرق إذا اختلفت الأهواء وتضاربت المصالح ـ ولذا فقد تخطى الإسلام كل تلك الروابط، وجعل الاعتصام بالله والأخوة في العقيدة الرباط القوي الذي لا ينفصم.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣].

فيحرص الإسلام على صيانة روح الأخوة الإيمانية والتوجيهات النبوية تزكيها وتنميها، فتجعل من مستلزمات الإيمان أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه ـ قال عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه أو قال: لجاره ما يحب لنفسه»[(١)].

وقد صور هذا المعنى وهذه المرتبة من الأخوة محمد قطب[(٢)] بقوله:

(يستطيع إثنان من البشر وهما يسيران في الطريق الواسع ـ في الأمن

---

(١) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ٢ ـ ص ١٦.
(٢) واقعنا المعاصر ـ ص ٤٨٩.

والسلامة ان يتاخيا! ان يسيرا معا وقد لف كل منهما ذراعه حول أخيه من الحب، ولكن انظر إليهما وقد ضاق الطريق فلا يتسع إلا لواحد منهما يسير وراء الآخر فمن أقدم، أقدم نفسي أم أخي وأتبعه؟! ثم انظر إلى الطريق قد ضاق أكثر فلم يعد يتسع إلا لواحد فقط دون الآخر إنها فرصة واحدة إما لي وإما لأخي فمن أقدم؟! أقول: هذه فرصتي وليبحث هو لنفسه عن فرصة؟! أم أقول لأخي: خذ هذه الفرصة أنت، وأنا أبحث لنفسي ـ هذا هو المحك.. إن الأخوة في الأمن والسلامة لا تكلف شيئاً ولا تتعارض مع رغائب النفس بل هي ذاتها رغبة من تلك الرغائب يسعى الإنسان لتحقيقها مقابل الراحة النفسية التي يجدها في تحقيقها، أما في الشدة ـ أو في الطمع ـ فهنا تختبر الأخوة الاختبار الحق الذي يتميز فيه الإيثار والحب للآخرين، من الأثرة وحب الذات التي قد تخفى على صاحبها نفسه في السلام والأمن، فيظن نفسه أخاً محققاً لكل مستلزمات الأخوة).

لقد تحولت هذه المعاني إلى حقائق ذهنية استوعبها الذهن والقلب فصدر عنه سلوك عملي من صحابة رسول الله ﷺ حينما بلغوا هذه الدرجة من المحبة الأخوية، وهي درجة الإيثار فامتدحهم الله تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [الحشر: الآية ٩].

وكلما ارتقى المسلم في درجة محبته لإخوانه كلما ارتفعت درجته عند ربه ونال محبته ورضاه، فقد ورد عنه ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله ـ منهم (**رجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه**)(١).

وكذلك الحديث الذي يقول فيه الرسول عليه الصلاة والسلام: «إن الله

---

(١) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ٧ ص ١٢٠ ـ دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ.

يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»[١].

لقد رفع الإسلام مقام المتحابين في الله وأعلى منزلتهم حتى جعلهم في منزلة يغبطهم فيها الأنبياء والصديقون والشهداء ـ قال ﷺ: «إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الشهداء والنبيون يوم القيامة لقربهم من الله تعالى ومجلسهم منه، فجثا أعرابي على ركبتيه فقال: يا رسول الله صفهم لنا وحلهم لنا ـ قال: قوم من أفناء الناس من نزاع القبائل تصادقوا في الله وتحابوا فيه، يضع الله عز وجل لهم يوم القيامة منابر من نور يخاف الناس ولا يخافون هم أولياء الله عز وجل الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[٢].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة لا يتسع المقام لذكرها، اختار منها هذا الحديث الذي يوضح قيمة هذا الحب الأخوي في الله.

الحديث الذي رواه مسلم: (قال رسول الله ﷺ: إن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية ـ قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا غير أني أحبه في الله عز وجل؟ فقال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)[٣].

بهذه المحبة التي غرست في القلوب فتصافت العقول، فتلاقت، كان المجتمع القوي النقي التقي المتماسك الذي وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٤]

---

(١) المصدر السابق، م ١٦، ص ١٢٣.
(٢) الحاكم، المستدرك م ٤، ١٧٠.
(٣) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، م ١٦، ص ١٢٣.
(٤) المصدر السابق جـ ١٦، ص ١٤٠.

ولهذا كله لم يرد في الكتاب والسنة عن الحث على شيء مثل ما ورد في المحبة والتآخي في الله إدراكاً منه ﷺ بأنها أساس الخير وجماع الفضائل حتى أنه يجعلها شرطاً في الإيمان فقد جاء عنه ـ عليه الصلاة والسلام: **«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم»**(١)

فالمجتمع الإسلامي الذي أسس على المحبة والأخوة في الله مجتمع سعيد قوي غني لأن المحبة هي أنجع وسيلة إلى تهذيب الأخلاق وتكميل النفوس، وهي سر الله المخزون الذي تشفى به الأدواء، والترياق الذي تذهب به سموم الأمراض الاجتماعية، وهي أنجع وسيلة لاقتلاع شجرة الشر من النفوس، وإبادة أنواع الفتن من العالم، وإذا تأكدت بين قوم أحلتهم محل الصفاء وسارت بهم أسرع ما تكون في طريق الارتقاء.

فالإسلام شديد الحرص على أن يحفظ للمجتمع وحدته وتماسكه وقوته وترابطه ومودته، فيعيش الناس فيه أخوة متحابين متعاونين تلفهم الرحمة وتربطهم المودة ـ فجاءت الأحاديث النبوية التي تقرر مبدأ التضامن والتكافل الاجتماعي بين المؤمنين بما يضمن سلامة هذه الأخوة ودوامها، منها قوله ﷺ: **«كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، قال: والكلمة الطيبة صدقة وكلّ خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتدل الطريق صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»**(٢)

فالحديث يقرر أصلاً من أصول المجتمع الفاضل، ومبدأ من مبادىء الإصلاح الإنساني العام، ويحث على صور متعددة من صور التراحم والتعاون، فإصلاح ذات البين وتقديم يد المساعدة للآخرين والتخفيف عنهم بالكلمة الطيبة

---

(١) المصدر السابق جـ ٢، ص ٣٥.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

والقول الجميل والفعل البسيط، كلها أمور يظهر أثرها في توثيق عرى الأخوة وتقوية روابط المجتمع، مما رواه البراء رضي الله عنه قال: (أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع: أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصرة المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس.

ونهانا عن آنية الفضة وخاتم الذهب والحرير والديباج والقسي والإستبرق)(١).

كما وردت توجيهات نبوية عالية لتحفظ على المجتمع وحدته وعلى الأخوة رباطها لتسلم الصدور وتصفو النفوس، منها:

قوله ﷺ: «**أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»(٢)، وقوله: «**من سره أن يبسط عليه رزقه وينسأ في أثره فليصل رحمه**»(٣). هذه بعض الواجبات الاجتماعية البسيطة لكن تأثيرها كبير وقوي في توثيق عرى المحبة، وتوكيد روابط المجتمع، أما صلة الأرحام فقد وردت فيها توجيهات قرآنية كثيرة تؤكد على أهمية هذا الواجب وتحض عليه لأن للأهل حقين حق الأخوة وحق القرابة، وتتوعد كل من يقطع رحمه. قال تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: الآية ٢٥]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**»(٤).

كما قال عليه الصلاة والسلام مؤكداً على الأخوة ومبيناً بعض حقوقها: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره**»(٥). فمناصرة المسلم واجبة على المؤمن وأن يأخذ بيده إذا رآه في ضيق وشدة، ثم نبه إلى عدم

---

(١) ابن حجر، فتح الباري ـ شرح صحيح البخاري جـ ٣، ص ١١٢.
(٢) الحاكم، المستدرك، جـ ٣، ص ١٣.
(٣) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، م ١٦، ص ١١٤.
(٤) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، نفس الجزء والصفحة.
(٥) المصدر السابق جـ ١٦، ص ١٢٠.

احتقاره بقوله: «ولا يحقره» وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه»[1]. وكأن الذي تسول له نفسه بالاستعلاء على أخيه المسلم واحتقاره قد خرج من كل خير وانغمس في كل شر ورذيلة، وباء بغضب الله بل إن الرسول الكريم أعطى للمسلم حرمته فلا يجوز لأحد الاعتداء عليه بأي نوع من الاعتداءات فقال: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[2].

كما ورد في التحذير من التشاحن والتفرق وكل ما يؤدي إلى قطع هذه الصلة الأخوية أو إفسادها أو إضعافها ما لا يحصى من الآيات والأحاديث الصريحة الصحيحة، وكأنها مرمى الدين الذي لا يريد غيره.

فقد جاءت سورة الحجرات بقواعد الأدب النفسي الذي يحكم المسلمين في المجتمع، قواعد قائمة على المحبة والاحترام والمحافظة على حقوق الآخرين، فالمجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام مجتمع له أدب رفيع، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾ [الحُجرات: الآية ١١].

فالآية نصت على أنه لا ينبغي للمؤمن أن يسخر من أخيه المؤمن ولا أن يعيبه بالهمز واللمز، ولا أن يلقبه باللقب الذي يتأذى منه، فإن من أفتك الآفات التي تغتال مشاعر الإخاء والمودة بين الجماعات استخفاف جماعة بجماعة، والنظر إليها نظراً ساخراً، فإن ذلك من شأنه أن يغري هؤلاء المستخفين المستهزئين بمن استخفوا بهم.

وبينت الآية ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن، فذكرت أنه لا

---

(١) المصدر السابق، ص ١٢١.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

ينبغي أن يسخر منه ولا يعيبه بالهمز واللمز ولا أن يلقبه باللقب الذي يتأذى منه)[(١)].

وقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك فقال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[(٢)].

يقول سيد قطب[(٣)]: (هذا المجتمع المثالي مجتمع نظيف المشاعر مكفول الحرمات مصون الغيبة والحضرة، لا يؤخذ أحد فيه بظنة ولا تتبع فيه العورات ولا يتعرض أمن الناس وكرامتهم وحريتهم فيه بأدنى مساس).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: الآية ١٢].

فنهى الله تعالى عن ظن السوء لأنه مدعاه لإيقاع الضرر بالمظنون به، كما نهى عن ذلك الرسول العظيم بقوله: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً»[(٤)].

ففي الحديث توجيهات عظيمة كلها تحفظ للقلوب والصدور سلامتها وللأخوة رابطتها، وذلك بالبعد عن الإيذاء والتخلص من أمراض القلوب، فالآية والحديث يقيمان سياجاً آخر حول حرمات الأشخاص وكراماتهم وحرياتهم، ويُعلّم المسلمين كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم في أسلوب مؤثر عجيب.

يقول سيد قطب[(٥)] في شرحه للآية: (إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل

---

(١) الدقس، كامل، نظرات في سورة الحجرات ص ١١٠.
(٢) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ٢ ص ٥٤.
(٣) في ظلال القرآن ـ جـ ٦ ـ ص ٣٣٣٦.
(٤) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١٦، ص ١١٨.
(٥) في ظلال القرآن، جـ ٦، ص ٣٣٤٥.

فلا يؤخذون بظنة ولا يحاكمون بريبة، ومعنى هذا ان يظل الناس ابرياء مصونة حقوقهم وحرياتهم واعتبارهم ـ وأين أقصى ما تتعاجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية لحقوق الإنسان فيها من هذا المدى الذي هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا وقام عليه المجتمع الإسلامي فعلاً، وحققه في واقع الحياة بعد أن حققه في واقع الضمير).

كما ورد التوجيه القرآني الكريم في نفس المعنى بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: الآية ٣٦] .

ينهي الله عن القول بلا علم بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، والمعنى (أي لا تتبع ما لا تعلم ولا يعنيك، وقال القتبي: لا تتبع الحدث والظنون، وقال مجاهد: لا تذم أحداً بما ليس لك به علم، وأصل القفو: البهت، والقذف بالباطل.

وقال الكميت:

فلا أرمي البريء بغير ذنب ... ولا أقفو الحواصن إن قفين

ومنه القافة: لتتبعهم الآثار)(١).

فالتثبت من كل خبر ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو منهج الإسلام الدقيق، إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب، أمانة يسأل عنها صاحبها، أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها، كل ما نطق اللسان بكلمة وكل ما روى الإنسان رواية، وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أو حادثة)(٢).

فهذه الأحاديث والآيات لو استقرت في وجدان المسلم لم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، ولم يبق مجال للأحكام

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ـ جـ ١٠ ـ ص ٢٥٨.
(٢) قطب، سيد، في ظلال القرآن، جـ ٤، ص ٢٢٢٧.

السطحية، والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب، ولاستقامت الحياة الاجتماعية، ولاستقامت القلوب وصفا الود وازداد الحب.

كما تؤكد الآية السابقة ـ من سورة الحجرات ـ على ضمان آخر لحرمات الناس في المجتمع وهي عدم التجسس، لأن التجسس يأتي غالباً بعد سوء الظن، والقرآن ينهى عن هذا العمل الدنيء تمشياً مع مبادىء هذا المجتمع المثالي، الحريص على نظافة الأخلاق والقلوب (ففي المجتمع الإسلامي يعيش الناس آمنين على بيوتهم وعلى أسرارهم آمنين على عوراتهم، ولا يوجد مبرر ـ مهما يكن ـ لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات، حتى ذريعة تتبع الجريمة، وتحقيقها، لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس، فالناس على ظواهرهم، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم فيتجسس عليهم ليضبطهم، وكل ماله عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها)[١].

بعد ذلك يأتي النهي عن الغيبة، وهي ذكر الإنسان أخاه المسلم في غيبته بما يكره، سواء كان الذكر صراحة أو كناية أو إشارة أو رمزاً، وسواء كان ما يذكره متعلقاً بدينه أو دنياه وبخَلْقه أو خُلُقه.

قال عليه الصلاة والسلام: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول. قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[٢]. وقد صورها الله أبشع تصوير كي لا يتهاون بأمرها أحد، وقد عرّف الرسول الكريم الغيبة بهذا التعريف حتى لا يترك مجالاً لأحد في أن يغتاب أخاه المسلم، لأنها تورث الضغائن، كذلك النميمة والتي هي نقل الكلام بين الناس على سبيل الإفساد، فقال عليه الصلاة والسلام متوعداً: «لا يدخل الجنة نمام»[٣].

---

(١) المرجع السابق، جـ ٤، ص ٢٢٢٨.
(٢) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١٦، ص ١٤٢.
(٣) المصدر السابق، م ١، ص ٣٠٢، الشعب ـ القاهرة.

ولعلم الشارع الحكيم ما تستتبعه هذه الرذائل من غرس العداوة والبغضاء حرمها ونهى عنها، وكذلك حذر من الكذب تحذيراً شديداً للسبب نفسه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: الآية ١٠٥]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**»(١). فالكذب من أكبر عوامل الإفساد وتفريق شمل المجتمع وتمزيق الوحدة النافعة، وإيغار الصدور بالحقد والكراهية.

لقد حذر الرسول ﷺ من التقصير في حقوق العباد، وبيّن وبال ذلك على الفرد ليكون ذلك زاجراً له ورادعاً عن هذه الرذائل وأمثالها حفاظاً على المجتمع وتماسكه، والأخوة وترابطها والمحبة ونقائها، قال عليه السلام: «**أتدرون من المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «**إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه، فطرح في النار**»(٢). فهذه العبادات كلها والتي جاء بها لم تنجيه يوم القيامة، أو تكفر عنه ظلمه للناس وتقصيره في حقوقهم.

إن التعليمات والتوجيهات التي وردت عنه ﷺ لحماية هذه القيمة الخلقية العظيمة (الإخاء) والتي يقوم عليها المجتمع الفاضل كثيرة لا يكفي هذا البحث لعرضها، وإنما أكتفي بما أشرت إليه لأبين أهمية العيش في ظلال الأخوة والمحبة والإيثار، لأن الحياة في ظلالها حياة رائعة ممتعة وجميلة.

ولقد ضرب الأنصار أروع الأمثلة في الإخاء، عندما قال لهم رسول الله ﷺ: «**إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم**»،

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، جـ ٧، ص ٩٥ (دار الفكر القاهرة).
(٢) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١٦، ص ١٣٥.

فقالوا: «أموالنا بيننا قطائع. فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر»، قالوا: «نعم»[1].

٤ ـ البذل والإنفاق:

من الحقائق الثابتة في الإسلام أن الأخوة الإيمانية ليست شعارات ترفع إنما هي رابطة مقدسة لها التزاماتها وتكاليفها وحقوقها، ومنها البذل والإنفاق (الواجب والمستحب) الذي لا يستغني عنه المجتمع المسلم وذلك لتحقيق التكافل والتضامن والتعاون بين أفراده، فقد جاءت الآيات التي تتحدث في هذا الموضوع في مواضع شتى من القرآن ولكن يجدها القارىء كوحدة موضوعية في أربعة عشر آية متتابعة في سورة البقرة لتعطينا تصوراً كاملاً عن هذه القيمة الأخلاقية الهامة في بناء المجتمع المسلم الفاضل ممثلة في الزكاة والصدقات. وتتحدث الآيات عن آداب البذل والإنفاق ونظام الصدقة في الإسلام.

ولقد تكرر الأمر بالإنفاق في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٥] . وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٤] .. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧] . وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحَديد: الآية ٧] .

وقد بينت آيات الإنفاق في القرآن الآداب النفسية والاجتماعية التي تجعل الثواب من الصدقة سلوكاً أخلاقياً محبباً لنفس معطيها مع ما يحصل عليه من الأجر والثواب. وتكون مكسباً وفائدة لآخذيها، فيسود الحب والخير المجتمع الإسلامي، وتحوله إلى أسرة يسودها التكافل والتضامن والتراحم، وترتفع البشرية إلى مستوى راقٍ من الفضل والعطاء يستفيد منه المعطي والآخذ على السواء. ومن أهم ما يميز البذل والإنفاق في آيات الإنفاق أنه غير مقيد بزمان

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٦م.

ولا مكان فجاءت ايات سورة البقرة تعالج الحالات النفسية والبشرية المختلفة والتي تعتري القلوب كالشح والبخل والرياء والمن والإيذاء وإخراج الخبيث مع وجود الطيب[1].

كما كانت الآيات تعرض صورة المنفقين المخلصين الذين ينفقون في السر والعلانية ويخرجون أفضل ما يمتلكون. وهذه الآيات تبدأ بالحض والتشجيع، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦١] .

فالقرآن لا يبدأ بالفرض والتكليف، إنما يبدأ بالحض والتأليف إنه يستجيش المشاعر الحية في الكيان الإنساني كله، إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة صورة الزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه، إن المعنى الذهني للتعبير ينتهي إلى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة يضاعف من رزق الله الذي لا يعلم أحد حدوده ومن رحمته التي لا يعلم أحد مداها[2].

وتتوالى الآيات لتحدد الهدف من هذا الإنفاق وهو ابتغاء وجه الله وفي سبيل الله لأنه لا قيمة له إلا إذا كان خالصاً لوجه الله خالياً من العوض وخالياً من الرياء ومن كل هوى أو غرض شخصي. قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البَقَرَة: الآيتان ٢٧١، ٢٧٢] .

ولا بد أن نلحظ طول التوجيه للإنفاق وتنوع أساليب الترغيب والترهيب بصدده لندرك أمرين:

---

(١) تم ذكر ذلك بالتفصيل في حديثنا عن الزكاة.

(٢) قطب، سيد، في ظلال القرآن، جـ ١، ص ٣٠٦.

أ ـ بصر الإسلام بطبيعة النفس البشرية وما يخالجها من الشح بالمال وحاجتها إلى التحريك المستمر والاستجاشة الدائبة لتستعلي على هذا الحرص وتنطلق من هذا الشح.

ب ـ ما كان يواجهه القرآن من هذه الطبيعة العربية التي اشتهرت بالسخاء والكرم ولكنه كان يقصد به الذكر والصيت ولم يكن أمراً ميسوراً أن يعلمهم الإسلام أن يتصدقوا دون انتظار لهذا كله، متجهين لله وحده دون الناس[1].

كما تعرض الآيات صورة المنفقين المخلصين بأسلوب التحضيض. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٧٤]. فهم ينفقون في جميع الأوقات وجميع الحالات ولذلك وعدهم الله عز وجل بالأجر ولم يحدد، ولكن قال: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٤]، وهذا الإطلاق يفيد أن الأجر يشمل كل ما عند الله من فضل، من مضاعفة في المال، وبركة في الرزق والعمر، أو بركة في الأولاد. أو أجر وثواب وأمن وسلام في الدنيا والآخرة.

ومن الآيات التي استرعت انتباهي آية البر في سورة البقرة والتي جمعت بين قواعد التصور الإيماني الصحيح وبين هذه القيم الأخلاقية العظيمة. قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: الآية ١٧٧]. يقول الحافظ ابن كثير[2]: (اشتملت الآية الكريمة على جمل عظيمة وقواعد عميمة وعقيدة مستقيمة. وقال الثوري:

(١) قطب، سيد، في ظلال القرآن، جـ ١، ص ٣١٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، م ١، ص ٢٠٧.

هذه أنواع البر كلها. وصدق رحمه الله فإن من اتصف بهذه الآية الكريمة فقد دخل في عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله). ولله در الإمام ابن كثير فقد أصاب كبد الحقيقة فقد ربطت الآية الكريمة بين حقيقة الإيمان وثمراته والتي منها البر والذي هو جماع الخير كله، بل هو الخير كله. فقد ورد في الحديث: (عن النواس بن سمعان الأنصاري قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: **البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**)[1]. فلقد ربطت هذه الآية بين الإيمان بالله (وهي القاعدة التي يستمد منها المسلم تصوراته ومبادئه وأخلاقه) والإيمان بعدالة الله في الحساب والجزاء في اليوم الآخر وبقية أركان الإيمان اللازمة لسلامة التصور والإدراك والعبادات وبين (إيتاء المال) لكل محتاج ومستحق في داخل المجتمع المسلم والذي له أثره في محيط الأسرة والجماعة فهو صلة لذوي القربى ووفاء بحق الأسرة وتحقيق لمروءة النفس، وتقوية لروابط النسب، وهو لليتامى تكافل بين الكبار والصغار وحماية للضعفاء من الشر والفساد والضياع، وهو رحمة للمساكين الذين لا يجدون ما ينفقونه وحفظاً لكرامتهم وإشعاراً لهم بالحب والولاء لقيم التكافل في محيط الجماعة المسلمة التي لا يُهمل فيها أحد ولا يضيع فيها إنسان، وإيتاء المال لابن السبيل ـ المنقطع عن أهله وماله ـ واجب إنساني وإشعار له بأن الإنسانية كلها أهل له والأرض كلها له وطن فإذا نأت به الديار فإن الإسلام قد جعل له في كل مكان إخوة وأهل. وهو للسائلين كف لهم عن المسألة التي يكرهها الإنسان، وسداً لحاجاتها الطارئة، فالإسلام لا يبيح المسألة لمن يجد الكفاية ولا تجوز المسألة إلا إذا حلت به كارثة أو جائحة، أو لم يجد عملاً، وهو للرقاب عتق وتحرير من أوقعته عداوته للإسلام في الرق، وذلك ليسترد حريته وكرامته. فهذه الآية وغيرها من آيات الإنفاق جاءت لتخلص المسلم من ربقة الحرص والشح والأثرة ولتحرر المسلم من عبودية المال، وعبودية النفس الأمارة بالسوء. فالبخل عواقبه وخيمة، قال

---

(١) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، م ١٦، ص ١١١.

تعالى: ﴿هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: الآية ٣٨]. فالبخل آفة تقتل النفس وتقتل المجتمع. وكان الرسول ﷺ يمقت البخل ويكره الشح ويحذر منه فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: **«اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»**(١). فالظلم والشح من أكبر المعاول التي تقوض المجتمع وتدمره لأن الإسلام دين يقوم على البذل والإنفاق والعدل.

ولقد ضرب المسلمون في البذل والإنفاق أروع الأمثال، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه إذ قال: (أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد. فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: **«ألا رجل يضيفه الليلة يرحمه الله؟»** فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفيء السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت. ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ، فقال: لقد عجب الله عز وجل ـ أو ضحك ـ من فلان وفلانة». فأنزل الله عز وجل(٢)، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩].

ويأتي عثمان بن عفان في أوائل المنفقين في سبيل الله عندما جهز جيش العسرة بمائتي بعير بأقتابها وأحلاسها ومائتي أوقية. فقال الرسول ﷺ: **«لا يضر عثمان ما عمل بعدها»**(٣).

هذه هي أبرز القيم والمبادىء الثابتة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، وغيرها كثير فاضت بذكرها الآيات والأحاديث.

---

(١) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٦، ص ١٣٤.
(٢) ابن حجر، فتح الباري، م ٨، ص ٦٣١، (دار الفكر).
(٣) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ٨، ص ١١.

الفصل الرابع

المنهج الأخلاقي ضوابطه وآثاره

نظراً لأهمية الأخلاق بالنسبة للمنهاج الرباني، وأنها تشكل دعامة أساسية من دعائمه، وركيزة من ركائزه، فقد وعد الله تعالى المحسنين بأعظم الثواب، وتوعد المسيئين بشديد العقاب، ترغيباً في فعل الخيرات وترهيباً من عمل المنكرات، وحتى يدرك المسلم أن الأخلاق الإسلامية التي دعا إليها الكتاب والسنة ليست من النوافل أو حلية أو زينة خارجية يتحلى بها المرء إن شاء ويدعها متى شاء، بل هي من صميم الأعمال، وجليل الفعال التي يترتب عليها عظيم الثواب، أو شديد العقاب في الدنيا والآخرة، وبها تتفاوت الدرجات في الآخرة من أعلى عليين إلى أسفل سافلين. ومن هنا فإن المنهاج الرباني العظيم قد حد حدوداً، ووضع عقوبات صارمة لتكون روادع وزواجر لكل من تحدثه نفسه في الخروج على آداب المجتمع وأخلاقه ولترد النفوس الجامحة إلى التمسك بقيم المجتمع وفضائله.

يقول عبد القادر عودة[1]: (تعتبر الشريعة الأخلاق الفاضلة أولى الدعائم التي يقوم عليها المجتمع، ولهذا فهي تحرص على حماية الأخلاق وتتشدد في هذه الحماية بحيث تكاد تعاقب على كل الأفعال التي تمس الأخلاق. أما القوانين الوضعية فتكاد تهمل المسائل الأخلاقية إهمالاً تاماً ولا تعنى بها إلا إذا أصاب ضررها المباشر الأفراد أو الأمن أو النظام العام. فلا تعاقب القوانين الوضعية مثلاً على الزنا إلا إذا أكره أحد الطرفين الآخر، أو كان الزنا بغير رضاه

---

(١) التشريع الجنائي، جـ ١، ص ٧٠.

رضاء تاماً، لأن الزنا في هاتين الحالتين يمس ضرره المباشر الأفراد كما يمس الأمن العام.

أما الشريعة فتعاقب على الزنا في كل الأحوال والصور لأنها تعتبر الجريمة تمس الأخلاق، وإذا فسدت الأخلاق فسدت الجماعة وأصابها الانحلال..) وقل مثل ذلك في سائر العقوبات التي قررتها الشريعة لحماية الأخلاق وصيانة المجتمعات. فالشريعة تعاقب على مجرد شرب الخمر (سكر الشارب أم لم يسكر) لأنها تنظر إلى الجريمة من الوجهة الخلقية التي تتسع كما نعلم لشتى المناهي والاعتبارات، فإذا صينت الأخلاق فقد صينت الصحة والأموال والدماء والأعراض وحفظ الأمن والنظام.

ويعلل عبد القادر عودة[1] ذلك بقوله: (والعلة في اهتمام الشريعة بالأخلاق على هذا الوجه، أن الشريعة تقوم على الدين، وأن الدين يأمر بمحاسن الأخلاق ويحث على الفضائل، ويهدف إلى تكوين الجماعة الصالحة الخيرة. ولما كان الدين لا يقبل التغيير والتبديل، ولا الزيادة والنقص، فمعنى ذلك أن الشريعة ستظل ما بقي الدين الإسلامي حريصة على حماية الأخلاق، آخذة بالشدة من يحاول العبث بها).

والعلة في استهانة القوانين الوضعية بالأخلاق، أن هذه القوانين لا تقوم على أساس من الدين. فكان من الطبيعي أن تهمل القوانين الوضعية المسائل الأخلاقية شيئاً فشيئاً، وأن يأتي وقت تصبح فيه الإباحية هي القاعدة والأخلاق الفاضلة هي الاستثناء.

ومن هنا يتضح أن العقوبات في الشريعة الإسلامية وضعت على أساس طبيعة الإنسان فمن طبيعة الإنسان أنه يخشى ويرجو. وهو لا يأتي أي عمل إلا بقدر ما ينتظر من منافعه، ولا ينتهي من عمل إلا بقدر ما يخشى مضاره. وطبيعة الإنسان تلازمه في الخير والشر، في الأعمال المباحة والأعمال

(١) المرجع السابق، جـ ١، ص ٧٠.

المحرمة، فلا يرتكب الجريمة إلا لما ينتظره منها من لذة أو منفعة. ولا ينتهي عن الجريمة إلا لما يخشاه من مضارها.

وقد راعت الشريعة طبيعة الإنسان فوضعت على أساسها عقوبات الجرائم عامة وعقوبات جرائم الحدود والقصاص خاصة. وأن الأساس الذي قامت عليه العقوبات في الشريعة الإسلامية هو حماية الأخلاق وسلامة المجتمع. ومن هنا فقد وضعت عقوبات شديدة وصارمة للجرائم التي تمس كيان المجتمع مساساً شديداً وهي نوعان لكل منهما حكم مختلف.

النوع الأول من الجرائم الماسة بكيان المجتمع تشمل جرائم الحدود وهي سبع جرائم: الزنا، القذف، الشرب، السرقة، الحرابة، الردة، والبغي.

(وقد اتجهت الشريعة في هذه الجرائم إلى حماية المجتمع من الجريمة وأهملت شأن المجرم إهمالاً تاماً فشددت العقوبة وجعلتها عقوبة مقدرة، ولم تجعل للقاضي أو ولي الأمر سلطاناً مع العقوبة، وعلة التشديد أن هذه الجرائم من الخطورة بمكان وأن التساهل فيها يؤدي حتماً إلى تحلل الأخلاق وفساد المجتمع، واضطراب نظامه وازدياد الجرائم. وهي نتائج ما ابتلت بها جماعة إلا تفرق شملها واختل نظامها وذهبت ريحها، فالتشدد في هذه الجرائم قصد به مصلحة الجماعة. فلا عجب أن تهمل مصلحة الفرد في سبيل مصلحة الجماعة)[1].

والنوع الثاني من الجرائم الماسة بكيان المجتمع تشمل جرائم القصاص والدية، وتتجه الشريعة فيها إلى حماية المجتمع من الجريمة والمجرمين. وأهملت شخصية الجاني لهذا الاعتبار إهمالاً تاماً إلا إذا عفى المجني عليه أو وليه.

هذه هي الجرائم التي تمس كيان المجتمع مساساً مباشراً عاقبت عليها الشريعة بعقوبات رادعة وأهملت في تقدير العقوبة شخصية الجاني إبقاء على

(١) المرجع السابق.

الجماعة وحماية لها. وأهم ما يعنينا في هذا الباب هو أن الذي قدّر العقوبات لهذه الجرائم التي تمس أمن وأخلاق المجتمع هو الله اللطيف الخبير، ولا يحق لولي الأمر أو القاضي الزيادة أو النقصان لأن الذي قدرها هو العليم بخفايا النفس البشرية. وقد وضعت على أساس: محاربة الدوافع التي تدعو للجريمة بالدوافع التي تصرف عن الجريمة.

ومن ثمرات الالتزام بالمنهاج الأخلاقي فوق ما ذكرناه ما يأتي:

١ ـ رضا الله ومحبته:

قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: الآية ١١٩].

وهذه الآية تبين كيف يحصل العبد على رضى الرب مقابل فضيلة خلقية واحدة وهي الصدق فكيف ببقية الفضائل؟ هذا بالإضافة إلى الجنة وما فيها من نعيم مقيم ورضوان من الله أكبر لأحبائه وأوليائه، فهم في جوار الله في جنته ومع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين (المرء مع من أحب)(١).

ومحبة الله لا تنال إلا بالتخلق بمكارم الأخلاق، والتخلق بأخلاق القرآن والاقتداء بصاحب الخلق العظيم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. فمن أراد محبة الله ورضوانه والفوز بجناته فعليه أن يكون من أهل هذه الأخلاق، فنرى محبة الله متحققة مع كل فضيلة من الفضائل الخلقية:

فمع فضيلة الإحسان، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥].

ومع فضيلة العدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: الآية ٤٢].

---

(١) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١٦، ص ١٨٨.

ومع فضيلة الصبر، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٤٦].

ومع فضيلة التقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: الآية ٤].

ومع فضيلة التوبة والطهارة الحسية والمعنوية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٢].

ومع فضيلة التوكل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٩].

كما جاء في الحديث القدسي إن الله تعالى قال: (**حقت محبتي للمتحابين فيّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ، وحقت محبتي للمتصادقين فيّ**)[1].

فمحبة الله تتحقق لهؤلاء الذين يتعاملون بأخلاق راقية ومحبة عالية، وأثبت الله هذه المحبة بقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٣١].

وهل هناك اتباع للرسول أبلغ من التأسي به في أخلاقه بعد أن مدحه ربه بأنه على خلق عظيم.

٢ ـ الأجور العظيمة والحسنات الكثيرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: الآية ١٠]. هذه الأجور على فضيلة الصبر، وبالمثل إن لكل فضيلة أجراً ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: الآية ٩٧]. ويؤكد هذا حديث رسول الله ﷺ السابق الذكر: «**ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن خلق**»[2].

---

(١) الحاكم، المستدرك، جـ ٤، ص ١٧١.

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، جـ ٤، ص ٣٦٢.

٣ ـ الأمن يوم الفزع الأكبر:

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [النمل: الآية ٨٩] . وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] .

٤ ـ محبة الرسول ﷺ:

يؤكد ذلك حديث الرسول ﷺ السابق ذكره: **«إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»**(١).

٥ ـ النهاية السعيدة عند الموت:

يصف القرآن الكريم النهاية السعيدة لمن آمن بربه ثم استقام على مقتضيات ذلك الإيمان فاستقامت أخلاقه وحسنت سريرته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: الآيات ٣٠-٣٢] . تبشرهم ملائكة الرحمة ساعة خروج الروح بهذا الإنعام الكبير بالأمن وعدم الخوف وعدم الحزن وبالجنة وما فيها من نعيم وبصحبة ملائكة الرحمة وولائهم لهم.

٦ ـ الجنة وما فيها من نعيم:

فالجنة جعلها الله ثواباً لأهل الفضائل الخلقية فهي مثلاً جزاء لفضيلة الصبر، قال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: الآية ١٢] ، ولفضيلة التقوى قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: الآية ٦٣] . وفي هذا المعنى ورد في الأثر أن الرسول ﷺ (سئل عن أكثر

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، جـ ١، ص ١٩٦.

ما يدخل الجنة قال: **«تقوى الله وحسن الخلق»**[(١)]. ولفضيلة إتقان العمل والإحسان فيه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾ [الكهف: الآيتان ٣٠،٣١] ، أتقنوا عملهم واتقوا الله ورضوا بالحلال القليل فأحسن الله إليهم في آخرتهم وأكرمهم ونعمهم وكساهم حللاً من الحرير وأساور من ذهب جزاء من ربك عطاء حساباً. بل وتفضل عليهم بما هو أعلى من الجنة وما هو أعظم وأقيم وهو رؤية الحق سبحانه وتعالى جزاء لإحسانهم لأن الإحسان هو قمة العطاء والفضل والمعروف، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: الآية ٢٦] ، قال ابن كثير: (الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل)[(٢)] وهل هناك إنعام يعدل هذا الإنعام أو يطال هذا الفضل؛ هذا هو الإسلام دين مكارم الأخلاق يرفع من قيمة الخلق فيثيب على الإحسان هذه المثوبة الغالية لتكون خير حافز على التزام الحق والخير والعدل، الذي يثري الحياة ويرتقي بالأحياء.

٧ ـ محبة الناس:

من الحقائق المحسوسة والملموسة في عالم الواقع أن الإنسان إذا حسنت أخلاقه كثر أحباؤه وقل أعداؤه وزاد أصفياؤه ولانت له القلوب وقد قيل: من لانت كلمته وجبت محبته، قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: الآية ٣٤] . وإن كانت هذه الفئة الخلوقة قد استحقت محبة الله كما بينت ذلك سابقاً فإن هذا الحديث يوضح لنا كيف تتم المحبة لهؤلاء عند أهل الأرض بعدما تحققت لهم محبة الله. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: **«إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول:**

---

(١) رواه الترمذي في سننه، جـ ٤، ص ٣٦٧، (حديث ٢٠٠٤).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ٢، ص ٤١٤.

إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض»[1]. وكما قيل:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

بل إن مخلوقات الله جميعاً تحب أولياء الله الذين تخلقوا بأخلاق القرآن، فتأنس بهم الجمادات والأرض والسماوات، بعكس أعداء الله الذين يبغضهم الله وجميع خلق الله من إنسه وجنه وملائكته وحتى الجمادات ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: الآية ٢٩].

الآثار المترتبة على سوء الخلق (العقوبات):

وكما يثيب الله عز وجل عباده المؤمنين الصالحين الأتقياء الذين حسنت أخلاقهم وطابت سريرتهم، فإنه سبحانه شديد العقاب لمن ساءت أخلاقهم وفسدت ضمائرهم، فالله سبحانه لا يظلم الناس شيئاً، فهو الحكم العدل يحب مكارم الأخلاق ويجازي عليها، ويبغض سوء الأخلاق ويعاقب عليها.. والله تعالى خالق الخلق ومربيهم وهو العليم الخبير بما يصلحهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: الآية ١٤]. فهو سبحانه بمقتضى علمه وحكمته بأحوال خلقه يأخذ بمجامع النفس البشرية، فيأخذها بالترغيب مرة وبالترهيب مرة، فالنفوس التي لا تصلحها الرغبة تصلحها الرهبة.

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحياناً على من يرحم

والقرآن الكريم مكيه ومدنيه يسير على هذه الوتيرة، وهو يعالج جميع القضايا: العقائدية والاقتصادية والاجتماعية.. إلخ.

لذا فإن القرآن قد فصل وقرر أن لكل جريمة عقوبة مناسبة ليستوفي سيىء الخلق جزاءه، وينال المجرم الخارج عن القانون عقوبته، وليرتدع بذلك غيره.

---

(١) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٦، ص ١٨٤.

ومن هذه الآثار:

١ ـ بغض الله لهم وغضبه عليهم:

جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: الآية ٨١] .

فالعدول عن الحلال إلى الحرام والخروج عن أمر الله مجلبة لغضب الله، كما أن بغض الله متحقق لمن ساءت أخلاقه. ومن ساءت أخلاقهم فسدت أعمالهم فترى بغض الله مع كل رذيلة خلقية.

فمع رذيلة الفساد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: الآية ٧٧] .

ومع الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: الآية ٤٠] .

ومع الخيانة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٨] .

ومع الكبر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: الآية ٢٣] .

ومع الغرور، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: الآية ٣٦] .

ومع الإسراف، قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٣١] .

٢ ـ إحباط العمل واكتساب السيئات:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: الآية ٢] .

فسوء الخلق وسوء الأدب مع الرسول ﷺ أحبط أعمالهم، وكان سبباً في ضياع جهدهم. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟

أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة: الآية ٦٩] .

وعن اكتساب السيئات ورد قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس: الآية ٢٧] .

٣ ـ الخوف الشديد والفزع يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: الآيتان ٤٢، ٤٣] .

ويصف القرآن فزعهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ [سبأ: الآية ٥١] .

٤ ـ بغض الرسول ﷺ لهم:

قال عليه الصلاة والسلام: «**وإن من أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون**»(١) .

٥ ـ الخاتمة السيئة:

يصف القرآن الكريم الخاتمة السيئة للذين كفروا بربهم وأعرضوا واستكبروا عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٠] .

هذه عاقبة الكفر والاستكبار وحتى الاستضعاف لا يقبله الله فجعل له نفس العقوبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، جـ ٤، ص ١٩٦.

مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: الآية ٩٧] .

٦ ـ النار وما فيها من عذاب:

جعل الله النار وما فيها من عذاب عقوبة عادلة لكل من أعرض واستكبر ولكل من أساء واستهتر، والأدلة على ذلك كثيرة أسوق بعضاً منها كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة: الآيات ١-٩] . فهذه رذيلة خلقية واحدة جعل الله عز وجل عقوبتها جهنم وبئس المصير.

كذلك نجدها عقوبة لرذيلة البخل ومنع الزكاة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: الآية ٣٤] ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: الآية ٣٥] . قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة: الآية٢٠].

٧ ـ بغض الناس:

إن من المسلّمات أن سيّء الخلق مهما أوتي من العلم أو من المال فإنه يكون مبغوضاً من الخلق، فالناس بطبيعتهم يكرهون بذيء اللسان قاسي القلب الجهول الظلوم البخيل الغضوب وينفرون منه، هذا بالإضافة إلى أن بغض الله له مجلبة لبغض الناس له. والدليل على ذلك قوله ﷺ في حديث سبق ذكره: **«وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فابغضوه، قيل: فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض»**[1].

---

(١) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١٦، ص ١٨٤.

وعنه ﷺ: «إن ابغض الرجال إلى الله الالد الخصم»[1]. وعنه ﷺ أنه قال: «إن شر الناس منزله عند الله يوم القيامة من ودعه أو تركه الناس اتقاء فحشه»[2].

وهكذا تتضح معالم المنهاج الأخلاقي الرباني وما وضعه الشارع الحكيم له من ضوابط وما رعاه به من حدود وعقوبات صارمة لا رحمة فيها ولا رأفة بالجناة الذين لا يبالون بالقيم والمبادىء الخلقية، حتى أتت تلك العقوبات ثمراتها الرائعة في المجتمعات التي أقامت حدود الله ورعتها حق رعايتها حيث اختفت الجريمة أو كادت تختفي، ورفعت الفضيلة رأسها وتوارت الرذيلة وبارت سوقها، ووقائع المجتمعات التي تتمسك بالقيم الدينية وتقيم حدود الله خير شاهد على ما نقول.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ـ جـ ٥ ص ١٣٧.

(٢) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي ـ جـ ١٦، ص ١٤٤.

الفصل الخامس

الخطوات العملية لاكتساب مكارم الأخلاق

بعد عرض موضوع الأخلاق في هذا البحث، وبعد أن عرفنا موقعه ومكانته وأهميته في الإسلام، أصبح واضحاً وجلياً أن صلاح أمر الدنيا والدين يكمن في التزام مكارم الأخلاق، وأن فلاح الإنسان في تزكية نفسه بإلزامها بكل ما دعت إليه الأخلاق الفاضلة والشيم الكريمة والأفعال الحسنة الجميلة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: الآيتان ١٤،١٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: الآيات ٧-١٠].

يقول ابن كثير[1]: (قد أفلح من زكى نفسه ـ أي بطاعة الله كما قال قتادة، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل. ﴿وقد خاب من دساها﴾: أي دسها وأهملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهوى).

ويقول إبراهيم سرسيق[2]: (كل النفوس قد زودها خالقها باستعدادات فطرية للنزوع إلى الخير أو الشر، وعلى النفس أن تختار أن يكون لها أو عليها نتيجة الكسب أو الاكتساب فيما تختار، وقد أقسم الله تعالى بهذه النفس مورداً إياها في صيغة التنكير المفيدة للعموم، ومعنى هذا أن عامة النفوس قد زودها الله تعالى بهذين النجدين: نجد الخير ونجد الشر، ثم إن النفس قد تصعد في اختيارها أو تهبط. قد تصعد من هذا المقام، مقام المجاهدة والمكابدة والتردد واللوم إلى منحدر الأدنياء ذوي النفس الأمارة).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ـ جـ ٤، ص ٥١٦.

(٢) النفس الإنسانية في القرآن الكريم، ص ٨٩.

ومعنى هذا أن سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة متوقفة على مدى تزكية نفسه بمجاهدتها على فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل حتى تكون طاهرة نقية من الظاهر والباطن، قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٠] . وأن شقاء الإنسان بتدسية نفسه باتباع هواها وانفلاتها وراء لذاتها وشهواتها دون ضابط أو وازع، أو خوف من عاجل نقمة الله وآجل عقوبته.

(من أجل هذا يعيش المسلم عاملاً دائماً على تأديب نفسه وتزكيتها وتطهيرها إذ هي أولى من يؤدب فيأخذها بالآداب المزكية والمطهرة لأدرانها كما يجنبها كل ما يدسيها ويفسدها من سيىء المعتقدات وفاسد الأقوال والأفعال، يجاهدها ليلاً ونهاراً ويحاسبها في كل ساعة، يحملها على فعل الخيرات ويدفعها إلى عمل الطاعات دفعاً، كما يصرفها عن الشر والفساد صرفاً ويردها عنه رداً)[1].

ولقد أعان الخالق سبحانه مخلوقه على مجاهدة نفسه، بما ركبه فيها بأصل الخلقة من صفاء وطهارة ونقاء، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: الآية ١٣٨] . ولم يترك اللطيف الخبير الإنسان إلى فطرته الطيبة وحدها، بل زوده بالاستعداد الفطري إلى عمل الخيرات، والميل إليها، ثم ميّزه على سائر المخلوقات بالعقل والإرادة، وأكرمه بالرسل وبالكتب ولم يدع وسيلة من وسائل الخير إلا وقد دله عليها، ولم يترك باباً من أبواب الشر والرذيلة إلاّ وأرشده إلى سده، وأرسل الرسل ليكونوا الأسوة الحسنى والقدوة العظمى للخلق في تطبيق منهاج الله وسلوك طريق الخير والنجاة.

ولئن تسلح الشيطان بالغواية، فقد سلّح الله الإنسان بالهداية والإيمان بالله وحده ومداومة ذكره وعبادته، حتى يمتلىء قلبه بحب الله وتقواه، ولا يبقى فيه

---

(١) الجزائري، أبو بكر، منهاج المسلم، ص ١١٧.

شيء سواه. وقد قوّى فيه الإرادة بمجاهدة النفس وتهذيبها وزوّده بالعقل، تلك القوة المدركة للخير والشر وكرّمه بالضمير المرهف الذي يحاسبه على أي تفريط في جنب الله. وفوق هذا وذاك فقد أرسل الله الأنبياء والرسل مثلاً عليا للإنسانية، وقدوة صالحة في مجاهدة أنفسهم، فلم يقتلوا غرائزهم، ولم يُميتوا شهواتهم بل حكّموا فيها عقولهم وضمائرهم فوصلوا إلى الكمال الروحي والجسماني فلم يبق للناس على الله حجة في مجاهدة أنفسهم وشياطينهم، ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: الآية ٧٨].

ولقد فسّر عبد الله بن المبارك قوله: ﴿حق جهاده﴾ بجهاد النفس والهوى، فيجاهد الإنسان نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله فيكون لله وبالله لا لنفسه ولا بنفسه [ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله قال النبي ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه»(١). «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»(٢).

كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج وأصلاً له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرت به وتترك ما نُهيت عنه ويحاربها في الله لا يمكنه جهاد عدوه في الخارج. فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج](٣).

فلا بد للعبد أن يجاهد نفسه أولاً بتخليصها من الأهواء والشهوات وتوجيهها إلى الحق في ذاته، وإلى الواجب في ذاته حتى تخضع أهواؤه وشهواته لأحكام الله، وأن يجعل هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ.

قال الإمام ابن القيم حين ذكر مراتب جهاد النفس:

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، جـ ٤، ص ١٦٥.
(٢) ابن حجر: فتح الباري، م ١، ص ٥٣.
(٣) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر شمس الدين، زاد المعاد، جـ ١، ص ٣٩، المطبعة المصرية ١٣٧٩هـ.

أحدها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق.

والثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

والثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلم وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات.

والرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإن استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين)[1].

أمر الخالق جل وعلا مخلوقه (الخليفة) باتباع رسل الله، والسير وفق منهاجه القويم، وصراطه المستقيم، والابتعاد عن طريق الشيطان، فقال عز من قائل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: الآية ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: الآية ٢١].

فعلى الإنسان أن يقوم بمجاهدة نفسه والارتقاء بها من النفس الأمارة بالسوء إلى النفس اللوامة التي تلوم صاحبها على فعل المنكرات إلى النفس المطمئنة، وليس ذلك ببعيد، فالحلم بالتحلم، والصبر بالتصبر، والعلم بالتعلم، فالنفس قابلة للترويض، والتهذيب والتزكية والتطهير، فكل ما ورد من الأوامر والنواهي الإلهية في منهاجه القويم لإصلاح النفس والمجتمع قابل للتنفيذ بسهولة ويسر، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٥].

فلا حجة لأحد، ولا عذر للمستهترين الذين أهملوا رياضة نفوسهم،

---

(١) المصدر السابق جـ ٢، ص ٣٩.

وتهذيب اخلاقهم. قال رسول الله ﷺ: «إن بني ادم خلقوا على طبقات شتى - إلى أن قال - ألا وأن منهم البطيء الغضب سريع الفيء، ومنهم سريع الغضب سريع الفيء فتلك بتلك ألا وأن منهم سريع الغضب بطيء الفيء ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، ألا وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء ألا وأن منهم حسن القضاء حسن الطلب ومنهم سيىء القضاء حسن الطلب ومنهم حسن القضاء سيىء الطلب فتلك بتلك ألا وإن منهم السيء القضاء السيء الطلب ألا وخيرهم الحسن القضاء الحسن الطلب ألا وشرهم سيىء القضاء سيىء الطلب ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم أما رأيتم إلى حمرة عينية وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض»[1]. وهذا الحديث دعوة إلى تعديل المزاج النفسي، وترويض لأصحاب الانفعالات السريعة على ضبط نفوسهم، فالغضب من الشيطان فيجب على المسلم مجاهدة نفسه حتى تكون لله وبالله وفي سبيل الله، فلا تغضب لنفسها بل تغضب لله كما كان يفعل رسول الله ﷺ.

ومن هنا تتفاوت مراتب النفوس، ودرجات المجاهدين أنفسهم في سبيل الله كما تتفاوت قيمة المعادن فمنها النفيس ومنها الرخيص، قال رسول الله ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[2]. فالنفس تسمو وترتفع قيمتها بالأخلاق الكريمة، وتهبط وترخص بفعل المنكرات والابتعاد عن مكارم الأخلاق.

فما أروع هدي الرسول المربي وهو يقول: الناس معادن، صلاحها يرفع قيمتها وفسادها يرخصها، فميزان التفاضل تنقية النفوس باتباع إرشادات المنهاج الرباني وإلزامها على اتباعه (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)[3].

فالفقه لغة: هو «الفهم» الذي يتبعه عمل مخلص جاد لمجاهدة النفوس

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، جـ ٤، ص ٤٨٣ و٤٨٤.

(٢) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١٦، ص ١٨٥.

(٣) ابن حجر، فتح الباري، جـ ١، ص ١٦٤.

حتى تكون لله وبالله وفي سبيل الله باطنها كظاهرها، فهذا هو اعظم الفقه.

وإن الخطوات العملية التي تعين المسلم على اكتساب مكارم الأخلاق كثيرة أشير إلى بعضها:

١ - الإيمان بالله واليوم الآخر:

إن البؤرة التي تنبع منها الخيرات، وتشع منها فضائل الأعمال والأقوال هي العقيدة الصحيحة، فهي التي تحدد سلوك الإنسان وأخلاقه وتضبط تصرفاته وتحدد اتجاهاته.

وإن الإيمان بالله وباليوم الآخر من أعظم الحوافز على فعل الخيرات واجتناب المنكرات، فهو المحرك للعواطف، والموجه للإرادة والدافع للسلوك ولذلك اقترن الإيمان بالله واليوم الآخر في القرآن الكريم مع كل أمر أو نهي ومع كل حكم من أحكام الشريعة وكل توجيه أخلاقي.

إن الإيمان بالحياة الآخرة والمسئولية العظمى أمام الله وجزاء الأعمال يكون في أعماق النفس دافعاً قوياً إلى عمل الخير ومكافحة الشر، ويكون هذا الشعور النفسي القوي ضامناً لتنفيذ قواعد الأخلاق والتشريع.

ومن هنا نقول أن الإيمان بالله واليوم الآخر هو المحور الأساسي الذي تدور عليه جميع الأوامر والتوجيهات والإرشادات القرآنية والأحاديث، وهو الحافز والدافع الرئيسي لتنفيذها والالتزام بها طمعاً في جنة الله ورضوانه وخوفاً من سخطه ونيرانه.

ومن هنا كانت عناية القرآن مكيه ومدنيه بربط جميع الأوامر والنواهي بالإيمان بالله واليوم الآخر ضماناً للمسارعة في تنفيذها.

(فالتوحيد والإيمان بإله واحد متصف بجميع صفات الكمال والحق والعدل والخير والرحمة والقوة، من شأنه أن يحرر النفس الإنسانية ويفسح المجال لانطلاقها في أوسع الآفاق دون أن تتقيد بغير قيود الحق والعدل والخير. واعتبار أن كل ما عدا الله صغيراً مهما كبر، فالله أكبر منه، وضعيفاً

مهما قوى، فالله أقوى منه. وعاجزاً مهما قدر، فالله أقدر منه. وفقيراً مهما غنى فالله أغنى منه.. فلا يتجه لأحد غيره ولا يستشعر بخوف ولا رهبة من أحد سواه، ولا يذل نفسه في حاجة إلاّ إليه، وناهيك بهذا قوة هائلة محررة لما أودعه الله في الإنسان من قوى، ثم هي حافزة له على عدم الرضا بالظلم والقهر، والتجبر والتمرد على البغاة والمتكبرين)[1].

وقد سلك القرآن الكريم أنجح الوسائل لتهذيب النفس والارتفاع إلى مدارج الكمال، فقد أكد القرآن أن الله يعلم خفايا النفوس وخطرات القلوب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: الآية ١٦]، وقال: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: الآية ١٩].

ولقد عملت هذه الآيات وأمثالها عمل السحر في نفوس المسلمين فعملوا جاهدين على اقتلاع خواطر السوء التي تشيع بين جنبات نفوسهم، وظلوا ينظفونها من كل هاجسة حتى لا يبقى فيها شيء مما يكرهه الله.

وبهذه التربية القرآنية في تأسيس اليقين في نفوس المسلمين على أساس المعرفة الحقة بالله، والإيمان الكامل بقدرته وتدبيره والإحساس الدائم برقابته ومحاسبته، ظهرت تلك النماذج الخلقية الفريدة لجيل الرعيل الأول غير مسبوقة ولا ملحوقة.

(إن القرآن المكي لم يصنع أصول دولة وإنما جاء مؤكداً فكرة أولى هي العماد الأعظم الذي يصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ـ وهي فكرة التوحيد. وكل ما جاء به القرآن في مكة كان تمكيناً لهذه الفكرة في النفوس، وإسلام الصحابة كان على أساس هذه الفكرة (التوحيد)، فلما ملأت نفوسهم دخلوا صف الإسلام، وجعلوا صدورهم حصوناً تدافع عنه)[2].

---

(١) دروزة محمد عزة: الدستور القرآني في شؤون الحياة، جـ ١، ص ٤٣، ط ٢، مطبعة الحلبي ١٩٦٦.

(٢) كامل، عبد العزيز، المجتمع الإسلامي في مكة، ص ٨٢. المطبعة الأهلية بحماة.

ومن ثم كان ميدان القران الاول هو عالم النفس والضمير، وتاسيس اليقين ووسيلته الأولى للوصول إلى هدفه هي تربية فردية عميقة هادئة للنفس البشرية، وترويضها على مكارم الأخلاق.

أما الإيمان باليوم الآخر والاعتقاد بالحساب والجزاء، فهي تقترن مع جميع الأوامر والنواهي القرآنية لتكون ضابطاً للسلوك البشري، ودافعاً لعمل الخير ومرهباً من فعل الشر.

فالإنسان حتى يستحضر في نفسه إحاطة علم الله، الذي يعلم السر وأخفى، ويستشعر مراقبة الله له وعلمه بما يعمل وما يخفي وما يعلن؛ كل ذلك ولا شك يحرك العواطف ويحدث الإنفعال النفسي في نفس الإنسان المتفكر في مصيره، فيكون كل همه طلب مرضاة الله والخشية منه والخوف من غضبه وعقابه ورجاء رحمته وإحسانه، وهذا كله خير وسيلة لتهذيب النفوس وتزكيتها، وتطهير القلوب من منكرات الأفعال والأقوال والأعمال.

وحين يتذكر الإنسان وقوفه بين يدي الله يوم البعث والجزاء، والحشر والنشر وتوزيع الصحائف، يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه، ويتذكر هول ذلك اليوم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: الآية ٢] .

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشُعَرَاء: الآيتان ٨٨،٨٩] . يوم تشهد الأيدي والأرجل والأعين وسائر الجوارح على صاحبها يوم تنكشف السرائر. كل هذا وأمثاله يثير الخجل من الله المنعم، والخشية من لقائه وحسابه والرغبة في تجنب سخطه وغضبه والوصول إلى مرضاته والفوز بجناته والنجاة من نيرانه.

(هذه العواطف كلها إذا بقيت شعلتها متوقّدة في النفس كانت كل واحدة منها حافزاً للإنسان على العمل فيما يرضى الله وعلى السلوك الصالح في هذه الحياة. والناس يختلفون فيما يحركهم من هذه العواطف، وأعلاها من كان

حافزه إرضاء الله. وقد خاطب القرآن الناس على اختلاف طبقاتهم فمنهم ـ وهم الأكثرون ـ إنما يحركهم الخوف من المصير الشقي والرغبة في المصير السعيد، ومنهم ـ وهو الأقل ـ ممن يعملون لوجه الله وإرضاء له)[١].

ومن آثار الإيمان بالله واليوم الآخر الإخلاص في العمل لله وحده دون سواه، فالمؤمن يخلص في عمله ويتقنه غاية الإتقان ويحسنه غاية الإحسان بمقتضى إيمانه بأن عين الله تراه، فمن استشعر قلبه مراقبة الله ومحاسبته وتصور الوقوف بين يدي ربّه أخلص في عمله وأتقنه، فزادت حسناته على سيئاته. لا شك أن ذلك خير دافع له على مداومة الطاعات، والحذر من المعاصي والسيئات. فيحسن خلقه وتسمو نفسه لتصلح سيرته وسريرته.

٢ ـ أداء العبادات:

لقد شرح الله تعالى أنواع العبادات لتحقيق غاية الخلق، في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: الآية ٥٦] . بالمفهوم الشامل الواسع للعبادة الذي يجعل بالنية الصالحة جميع أعمال الإنسان عبادة إذا قصد بها وجه الله.

والعبادة في نظام الإسلام جزء مهم لا بد من القيام به على الوجه الأمثل حتى تحقق هدف العبادة ووظيفتها.

(فالعبادة هي التي تجعل العقيدة حية في النفس وتنقلها من حيز الفكر المجرد إلى حيز القلب الذي يحس ويشعر فيجعلها، بذلك قوة دافعة لها حرارتها ولها نورها، فشتّان بين من يعلم عقلياً ويقتنع فكرياً بوجود الله، ومن يحس ويشعر، بإشراقه وهيمنته عليه ويعلمه بسّره وعلنه، ويتصور تصوراً قلبياً حتمية لقائه وحسابه. فالعبادة في الإسلام هي الوسيلة التي تنقل الإنسان من

---

(١) المبارك، محمد، نظام الإسلام العقيدة والعبادة، ص ١٥٤، دار الفكر، بيروت، ط٤، ١٩٧٥م.

الحالة الأولى إلى الحالة الثانية، فهي توقد جذوة العقيدة وتغذيها وتتغذى بها وتحيا عليها)(١).

والعبادة لون من الأخلاق، والأخلاق لون من العبادة، وإذا كانت العبادة عند المؤمن لوناً من الأخلاق المحمودة، فالأخلاق عنده نوع من العبادة المفروضة فهي أخلاق ربانية باعثها الإيمان بالله وحاديها الرجاء بالآخرة، وغرضها رضوان الله وتوبته.

فالعبادة عند المؤمن نوع من الأخلاق لأنها من باب الوفاء لله والشكر للنعمة والاعتراف بالجميل والتوقير لمن هو أهل للتوقير والتعظيم. وكلها من مكارم الأخلاق عند الفضلاء من الناس ومن أجل ذلك يعقب القرآن على أوصاف المؤمنين القانتين المطيعين بمثل هذه الجمل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: الآية ١٧٧] ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: الآية ١٥] . والصدق فضيلة خلقية خالصة وإنما استحقوها ـ بل جعلت مقصورة عليهم لأن أعلى مراتب الصدق وأثبتها وأبقاها هو الصدق مع الله رب العالمين. واقرأ مثل ذلك في القرآن الكريم كله حيث يبرز أحياناً جانب العبادة وأحياناً الأخلاق لاعتبارات ومناسبات توجب هذا الإبراز. ففي سورة الذاريات نجد العناية بالعبادة في وصف المتقين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: الآيات ١٦-١٩] .

وفي سورة الرعد نجد العناية بالجانب الأخلاقي في وصف أصحاب العقول: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: الآيات ١٩-٢٢] .

ومع أن معظم الأوصاف هنا أخلاقية لمناسبة أولي الألباب ـ مثل الوفاء

(١) المبارك، محمد، نظام الإسلام العقيدة والعبادة، ص ١٦٤.

والصلة والصبر والإنفاق لكن الملحوظ فيها انها ليست مجرد أخلاق (مدنية) وإنما هي وصف لأخلاق ربانية أو (دينية، أخلاق فيها معنى العبادة والتقوى، فهم إنما يوفون «بعهد الله» وإنما يصلون ما أمر الله به أن يوصل وهم إنما يصبرون «ابتغاء وجه ربهم» فهم في كل أخلاقهم وسلوكهم يرجون الله ويخافون اليوم الآخر، كما سبق أن ذكرنا أن الإيمان بالله واليوم الآخر خير حافز على فعل الخيرات واجتناب المنكرات ابتغاء وجه الله. فهي أخلاق ربانية باعثها ودافعها هو الإيمان بالله وطلباً لما عنده كقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: الآية ٨] . ويكشف القرآن عن حقيقة بواعثهم وطوايا نفوسهم فيقول معبراً عن لسانهم[1]: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: الآيتان ٩، ١٠] .

والأصل في العبادات أنها حق الله على عباده، يجب أن تؤدى امتثالاً لأمر الله وأداء لحقه على عباده، شرعها الله تعالى لصحة الإنسان كالأدوية لصحة بدنه.

ومن المؤكد الذي لا ريب فيه أن صلاح النفس وزكاة الضمير واستقامة الأخلاق هي الثمرة اللازمة للعبادة الحقة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: الآية ٢١] . وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: الآية ١٨٣] .

فالتعبير بلعل دون التعبير بلام التعليل أو (كي) يفيد أن العبادة أو الصيام تجعلهم على رجاء التقوى وتعدهم لها، فالعبادة التي لا تؤدي إلى التقوى تحتاج إلى إعادة وإجادة وإحسان.

---

(١) القرضاوي، العبادة في الإسلام، مؤسسة الرسالة، ط ١٧ بيروت، ١٩٨٥م، ص ١٢٥.

٣ ـ الإقناع الفكري:

ويكون ذلك عن طريق التعلم والفقه في دين الله، وأول خطواته هو التدبر في كتاب الله وهدي نبيه ﷺ، ليدرك الآثار المحمودة للفضائل الخلقية، والآثار المذمومة للمساوىء الخلقية فيقتنع بوجوب الالتزام بفضائلها ويرغب في التطبيق.

فالمعرفة الصحيحة تبرز ما في مكارم الأخلاق من كمال وجمال وتورث اليقين بثمراتها الطيبة وخيراتها المادية والمعنوية الدنيوية والأخروية، فيتولد في النفس الرغبة الصادقة للتحلي بها؛ وتبرز ما في منكرات الأخلاق من نقص وقبح وتورث اليقين بمضارها ونتائجها الوخيمة فيتولد في النفس النفور منها والرغبة الصادقة في اجتنابها.

فالقرآن استخدم كل الأساليب لبيان المنهج الأخلاقي وآثاره بالترغيب والترهيب والتشجيع والإكرام والمكافأة والتثبيط والإهانة والعقوبة، وذلك لأن الناس أصناف فكل صنف له أسلوبه الذي يقتنع به ويختلف به عن غيره.

٤ ـ التدريب العملي والرياضة النفسية:

إن التدريب العملي وقصر النفس على غير ما تهوى من الأمور التي تكسب النفس الإنسانية الأخلاق والعادات المستحبة والسلوك السليم، وهذا من الأمور الممكنة حتى لو وجد الإنسان في بادىء الأمر صعوبة في الالتزام بها. قال أبو ذؤيب الهذلي:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع.

وقد وضحت الأحاديث الشريفة عن إمكانية ذلك فكان من قوله ﷺ: «ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنيه الله ومن يتصبر يصبره الله»[١]. وقوله ﷺ أيضاً: «إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ـ ومن يتحر الخير يُعطَه

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ١١ ص ٣٠٩.

ومن يتوق الشر يوقه»(١). ومن هذه الأحاديث نفهم الخلق:

أولاً: فطرية الخلق.

ثانياً: قابليته للتعديل بالممارسة والتدريب العملي.

(وهذه هي الأخلاق المكتسبة وقد يبدو التخلق بخلق ما عملاً شاقاً على النفس وخاصة إذا لم يكن ذلك من طبيعته الفطرية ولكن بالتدريب والمران يصبح سجية ثابتة. وقد أخبرنا بذلك اللطيف الخبير في سورة الشمس كما مر بنا. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۞﴾ [الشمس: الآيات ٧-١٠] .

فقد زود الله النفس الإنسانية باستعدادات فطرية للنزوع للخير والشر. والإنسان بالتدريب والمران يستطيع أن يعود نفسه الآداب المزكية والمطهرة، ويحملها على فعل الخيرات لأن سعادته في كلتي حياتيه موقوفة على مدى تأديب نفسه وتطييبها وتزكيتها، كما أن شقاءها منوط بفسادها وتدسيتها، وبإمكان المرء أن يتبع في إصلاحها وتأديبها الخطوات التالية كتدريب عملي (كما وضحها الشيخ أبو بكر الجزائري في منهاج المسلم)(٢):

أ ـ التوبة:

بالتخلي عن سائر الذنوب والمعاصي، فإذا ما ألم العبد بذنب سارع بالتوبة والإنابة إلى الله ـ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞﴾ [آل عمران: الآية ١٣٥] .

ب ـ المراقبة:

يعود نفسه على مراقبة الله تبارك وتعالى حتى تصبح مستغرقة بملاحظة

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخه جـ ٩، ص ١٢٧ من حديث أبي هريرة وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ص ٣٤٢.

(٢) ص ١١٦ .

جلال الله وكماله شاعرة بالانس في ذكره، واجدة الراحة في طاعته، راغبة في جواره مقبلة عليه، معرضة عمن سواه. قال سفيان الثوري: (عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة).

جـ ـ المحاسبة:

بحيث يخلو بنفسه ساعة من آخر كل يوم يحاسب نفسه فيها على عمل يومه، فإن رأى نقصاً لامها ووبخها واستغفر وندم وعمل من الخير ما يراه مصلحاً لما أفسد.

د ـ المجاهدة:

أن يجاهد نفسه التي بين جنبيه فهي أعدى أعدائه. فالنفس أمارة بالسوء ترغب في الدعة والخلود والراحة وتنجرف مع الهوى، فإن أحبت الراحة أتعبها، وإن قصرت في طاعة عاقبها ولامها حتى تطهر وتطيب، وتلك غاية المجاهدة للنفس.

٥ ـ الغمس في البيئات الصالحة:

فمن طبيعة الإنسان أنه يكتسب من البيئة التي يعيش فيها أخلاقه وعاداته وتقاليده وسلوكه، ومن الصعب إصلاح إنسان منحرف أخلاقياً ما لم يعزل عزلاً كاملاً عن أقرانه من المجرمين والأشرار، لأن وجوده بينهم يكون عاملاً قوياً لاستمراره على فساده وانحرافه، ولذا جاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجلاً قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال: أنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: أنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم

ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. . .» الحديث[1].

فالشاهد في الحديث أنه أمره بالانغماس في البيئة الصالحة، وترك البيئة الفاسدة، لأن البيئة الصالحة ستعينه على الخير.

ويدخل تحت هذه الوسيلة اختيار الأصدقاء والقرناء، فالصديق المصاحب له تأثير شديد على صاحبه، ولذا كان التوجيه النبوي الكريم حيث قال: **«إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيباً، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك. وإما أن تجد ريحاً خبيثة»**[2].

فاختيار الجليس الصالح من العوامل المساعدة للالتزام بالأخلاق الفاضلة والسلوك القويم، ويؤيد ذلك قوله ﷺ: **«الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»**[3].

كما قيل:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه	فكل قرين بالمقارن يقتدي
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم	ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

٦ - القدوة الحسنة:

وهي المثال الحي لمكارم الأخلاق، فالإنسان القدوة هو المرتقي في درجات الكمال الإنساني كالرسول ﷺ، فهو الأسوة الحسنة لأمته. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١] . فهو مَنْ زكاه ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: الآية ٤] .

وكذلك الأنبياء والرسل كانوا قدوة لأممهم، ليسهل عليهم فهم الشرائع

---

(١) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١٧، ص ٨٤.

(٢) المصدر السابق، جـ ١٦، ص ١٧٨.

(٣) الترمذي، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، جـ ٥ ص ٥٨٩، حديث رقم: ٢٣٧٨.

والأحكام والأخلاق والاداب إذا ما راوها حية متحركة امامهم، ويصير لديهم القناعة بأن بلوغ هذه الكمالات من الأمور الممكنة.

والقدوة الحسنة عموماً مهمة في العملية التربوية فهي تثير في نفس العاقل دوام الإعجاب والتقدير والمحبة والرغبة في التأسّي والأتّباع.

٧ - الضغط الاجتماعي من قبل الجماعة المسلمة القائمة بشرع الله:

إن الجماعة عادة تكون لها سلطة معنوية فعالة ومؤثرة على نفوس أفرادها ولذا فإن الشارع الحكيم قد اعتمد عليها في تقويم أفرادها وإصلاحهم، فقد جاء عنه ﷺ أنه قال: **«مثل القائم في حدود الله والواقع فيه كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»**(١).

فمن الأمور التي حض عليها الشارع الحكيم لزوم الجماعة المسلمة القائمة بأمر الله لما في ذلك من فوائد عظيمة يجنيها الفرد والمجتمع بل الإسلام نفسه. قال عليه الصلاة والسلام: **«يد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ في النار»**(٢).

وكان من هديه ﷺ أنه كان يحذر من الانفراد عن الجماعة بقوله: **«الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»**(٣).

بل حذر الشارع الحكيم من التفرق والاختلاف المذموم، واعتبر ذلك من

---

(١) العيني، بدر الدين أبو محمود، عمدة القاري بشرح صحيح البخاري، جـ ١٣، ص ٥٦. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(٢) الحاكم، المستدرك، جـ ١، ص ٧٧.
(٣) الترمذي، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، صحيح الترمذي، جـ ٢، ص ٢٣٢.

الأمور المحرمة. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٣] . والاختلاف يؤدي إلى ضياع مصالح المسلمين وإلى تفتيت قوتهم.

وعند قراءتنا للسيرة نجد أن الرسول ﷺ بدأ بتربية المسلمين تربية جماعية في دار الأرقم بن الأرقم، وكانت هذه الجماعة هي نواة المجتمع الإسلامي الأول الذي جعله الشارع الحكيم رقيباً على أفراده وحارساً ومحاسباً ومعاقباً وناصحاً آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: الآية ١٤٣] . وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ١١٠] .

فمن شأن الجماعة المسلمة القائمة بأمر الله أن تملي على من ينضم إليها أو ينخرط فيها فضائل الأخلاق، وتحاسب الفرد حتى لا يشذ عنها. قال عليه الصلاة والسلام: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم»[1].

وقد أوضح الرسول ﷺ ضمن وسائل التربية ـ لإلزام الأفراد بالمنهج الأخلاقي الذي جاء به ـ وسيلة الضغط الاجتماعي وكيف تربي الجماعة الأفراد بعقوبة الهجر والمقاطعة في الله في قصة الثلاثة الذين خلفوا.

٨ ـ السلطة التشريعية:

للسلطة التشريعية أثر فعال في إلزام الأفراد والجماعات بالمنهج الأخلاقي الذي رسمه الإسلام للناس، وفي تربية نفوسهم على الفضائل الأخلاقية، فهي التي تتولى رقابة الأفراد والجماعات ومحاسبة المنحرفين وذلك بوضع الأنظمة

---

(١) أبو داود، سنن أبي داود، جـ ٢، ص ٤٣٦.

والقوانين المختلفة المرغبة والرادعة واتخاذ الوسائل اللازمة لحماية الأخلاق وصيانتها، لأن وازع السلطة التشريعية أقوى وازع لإلزام الناس بالسلوك السليم. كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن).

وحينما تكون هذه السلطة قوية ووسائلها جيدة فإن انحراف الأفراد وشذوذ الجماعات يقل إلى أدنى نسبة ممكنة، بل ربما تصبح حالات الانحراف الخلقي وحالات الإجرام في حكم النادر، كما حصل ذلك في عهد الرسول ﷺ في مجتمع المدينة المنورة، وكلما كانت إدارة السلطة حازمة ويقظة كلما استقامت الجماعات والأفراد إلى درجة كبيرة كما حصل ذلك في عصر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وحتى يستطيع المسلم أن يستفيد من هذه الوسائل في تقويم أخلاقه يجب أن لا ينسى الدعاء، فيستعين بالله ويطلب منه أن يلهمه حسن الخلق ويعينه على ما أهمه من أمر دينه ودنياه اقتداء به ﷺ حيث كان يدعو ويقول: «**واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت**»(١).

لعل الله يعيد لهذه الأمة أمر رشدها فتستعيد مكانتها بين الأمم لتكون خير أمة أخرجت للناس. سائلة الله عز وجل للمسلمين الهداية والتوفيق إلى سواء السبيل وهو نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، سنن الترمذي جـ ٥، ص ٤٨٤.

المراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الأبادي، محمد شمس الحق.

عون المعبود شرح سنن أبي داود، جـ ١٢ المكتبة السلفية، ط ٢، المدينة المنورة، ١٩٦٨م.

٣ ـ الباز، محي الدين.

القرآن الكريم كتاب الإحسان، مجلة الهداية البحرين العدد ١٦٧، محرم ١٤١٢م.

٤ ـ الألباني، محمد ناصر الدين.

إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي، ط ٢، بيروت، ١٩٨٥م.

٥ ـ أنيس، إبراهيم وآخرون. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٢م.

٦ ـ البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل.

١ ـ صحيح البخاري، دار الطباعة اسطنبول. د. ت.

٢ ـ الأدب المفرد، دار البشائر الإسلامية، بيروت ط ٣، ١٩٨٩م.

٧ ـ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، ت ٢٧٩هـ الجامع الصحيح، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٨ ـ الجزائر، أبو بكر جابر.

منهاج المسلم، دار الشروق، ط ١١، جدة ١٩٩١م.

٩ ـ الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري ت ٤٠٥هـ.
المستدرك على الصحيحين في الحديث، دار الكتب العلمية.

١٠ ـ ابن حجر، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ٨٥٢هـ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، دار المعرفة، بيروت.

١١ ـ ابن حنبل، أحمد.
المسند، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٤، ١٩٨٣م.

١٢ ـ حوى، سعيد.
المستخلص في تزكية الأنفس، دار السلام للطباعة والنشر، ط ١، القاهرة، ١٩٨٣م.

١٣ ـ أبو داود، الإمام الحافظ سليمان بن الأشعث الأزدي. ت ٢٧٥هـ.
سنن أبي داود، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

١٤ ـ دروزة، محمد عزة.
١ ـ **المرأة في القرآن والسنة**، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٧م.
٢ ـ **الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة**، ط ٢، مطبعة الحلبي، ١٩٦٦م.

١٥ ـ الدقس، كامل.
نظرات في سورة الحجرات، دار الشروق، جدة، ١٩٧٦م.

١٦ ـ الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر.
مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، ط ١، بيروت ـ دمشق ١٩٦٧م.

١٧ ـ الراغب الأصفهاني، القاسم الحسين بن محمد ت ٥٠٢هـ.
المفردات في غريب القرآن، مطبعة ومكتبة البابي الحلبي القاهرة، ١٩٦١م.

١٨ ـ الزحيلي، وهبة.
آثار الحرب في الفقه الإسلامي، المكتبة الحديثة بدمشق، ط ٢، ١٩٦٥م.

١٩ ـ سرسيق، إبراهيم.

النفس الإنسانية في القرآن الكريم، تهامة، ط ١، جدة، ١٩٨١م.
٢٠ ـ ابن عساكر، الحافظ علي بن الحسن بن عساكر الشافعي ت ٥٧١هـ.
تهذيب تاريخ ابن عساكر، مطبعة روضة الشام، ١٣٣٠هـ.
٢١ ـ عودة، عبد القادر.
التشريع الجنائي، مكتبة دار العروبة، ط ٢، القاهرة، ١٩٦٤م.
٢٢ ـ العيني، بدر الدين بن محمد محمود بن أحمد. ت ٨٥٥هـ.
عمدة القاري بشرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٣ ـ القرضاوي، يوسف.
١ ـ الخصائص العامة في الإسلام، دار المعرفة، الدار البيضاء.
٢ ـ العبادة في الإسلام، مؤسسة الرسالة، ط ١٧، بيروت، ١٩٨٥م.
٢٤ ـ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد.
الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٦م.
٢٥ ـ قطب، سيد.
في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط ١١، ١٩٨٥م ـ ط ١٠، ١٩٨٢م.
٢٦ ـ قطب، محمد.
واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، ١٩٨٨م.
٢٧ ـ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر شمس الدين، ت ٧٥١هـ.
زاد المعاد، المطبعة المصرية، ١٣٧٩هـ.
٢٨ ـ كامل، عبد العزيز.
المجتمع الإسلامي في مكة، المطبعة الأهلية بحماة.
٢٩ ـ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل.
١ ـ السيرة النبوية، ج ٢، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٦م.
٢ ـ تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٩م.

فهرس البحث

المقدمة ٥
الفصل الأول: مفهوم الأخلاق ١٣
الفصل الثاني: عناية القرآن والسنة بالأخلاق وصلتها بالعقيدة والعبادة والمعاملات ٢١
الفصل الثالث: القيم الخلقية الأساسية لبناء المجتمع المسلم ٦٣
الفصل الرابع: المنهج الأخلاقي ضوابطه وآثاره ٨٥
الفصل الخامس: الخطوات العملية لاكتساب مكارم الأخلاق ٩٧
المراجع ١١٥